كوكينيا

مائة ليلة بعيداً عن نورتييكورت

الكتاب: كوكينيا

مائة ليلة بعيدًا عن نورتبيكورت...

المؤلف: هدى درويش

رقم الإيداع: 2021/ 23418

الترقيم الدولي: 9–321–493–977–978

الطبعة الأولى القاهرة ٢٠٢٢

الناشر

شمس للنشر والإعلام

٢٧ ش الثلاثين – برج الشانزليزيه – زهراء المعادي – القاهرة

ت فاكس : ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)

www.shams-group.net



كوكينيا

مائة ليلة بعيدًا عن نورتييكورت

رواية

هدى درويش

إلى وهران...

والإسكندرية...

هنالك أين تحابي السماء سكينة الآثام...

نورتبيكورت ـ بيكارديا

السادس من تشرين الأول عام ٢٠١٩....

عشرة دقائق إلى منتصف الليل
أَونُ الأشباح أن تستفيق بلا أقنعة!

ليس هنالك أعذب من مطر حان وقته... لا تحب صافيتا الكلام بقدر ما تهوى السخرية من أنين الصمت، وهي لا تجد كلماتها في تأبين روحها عشية كل عيد، تجلس أمامي ولوهلة تختطف نظري وهي تستلقي على ظهرها على كرسي الاعتراف وبطريقة غير محسوبة، تظهر لي في كل لقاء مشتتة أكثر مما كانت عليه، وتنظر لي بأسلوب يتفحصني وكأنني أنا المريضة وهي الطبيبة وليس العكس... وأجدني في كل مرة عاجزة عن القفز بين امرأتين تسكنان هذا الجسد، ومن صدر واحدة للأخرى تعطيني صافيتا برهات من الوقت كما دومًا حتى أتجرد من ثوب كاتبة إلى ثوب طبيبة معالجة لا بد لها ألا تخرج عن قواعد مهنتها وهي تحافظ على انفعال عاطفتها بتوازن محكم يحميها من عدم الانصهار كليًا في حكايات صافيتا.. لكن الأمر يبدو لي أقرب فأقرب إلى المستحيل.

تقرأ لي صافيتا هذه الحكايات الغريبة، دون أن تنظر إلى أي ورق، يداها فارغتان وعيناها تلتصقان بحافة الجدار العلوية

وقلبها شاحب وجاف ومهزوم...

هنا... أين ابتدأتُ الحياة بكل معناها، وهناك أين تركتُ وحشتي ليقتلها ريح المساءات العابر، أقلعتُ عن بعث تلك الرسائل لنفسي...، تمادى الألق بأفكاري وهدهدها الشوق وأحياها من موت الانتظار الطويل وما زالت تكبلني الحاجة إليه بالفرح...

عاد أيلول وما زلت وحيدة، مهما انبثقت بشائر الليل للمرة الأولى في تلك الغرفة المظلمة، ومهما اكتنف الشجن ذاتي في تيه الوهاد... لأول مرّة أرنو إلى شبحي الذي أصبح بعد الحبّ في المرآة جميلاً، ما زالت ألعابي اليومية لا تتعدى كيان الأنثى وذرات الذاكرة المشتتة.

هي الليلة العاشرة التي يتسربل فيها الشوق إلى متاهات الحلم، تطالع صافيتا ملامح وجهها في المرآة المقابلة ويكتنفها الفرح كمن يقف أمام جدار زمني يغير وجه امرأة إلى طفلة ما تلبث أن تدرك أهمية الخوف كفيلسوفة مريضة بداء التأمل، احترم صمتها وهي تجيرني فرصة للهروب من حقائق علمية بحتة كنت مؤمنة بها إلى يوم لقائي بهذه المريضة البطلة التي حركت في غسق حمرة هذا الليل شكوكي وجعلتني عاجزة أن أنظر إلى ما خلف تركيبات الكيمياء.. تمشي بعض الخطوات وتتوقف أمام حديقة الشرفة الصغيرة المعلقة وتطالع بعض

الأشواك التي انبثقت زورًا بين الزنابق البيضاء.. أقف خلفها بخطوات ثابتة وهادئة فيلتصق خصرها بالسور الخارجي وهي تحدثني عن الزنابق..

وأصبح ذلك السور الجميل قحطًا شائكًا، لم تكن زنابق الوادي البيضاء به مستحيلة الجمال لو وُضعتْ في تلك المزهرية... كانت ستفقد شعاع عذوبتها بين اللازوردي والليلكي والبنفسج... ما حدث ذات يوم لهذا القلب هو تمامًا كفوبيا أن تموت الوردة كي تحيا الأشواك الدخيلة بقربها...

فأدركتُ قيمة الحياة تحت سنابك الموت حين تقطرت سراديب الفقدان والفراق دمعًا وأنينًا وصمتًا جارحًا... أضاعني زورًا بين تفاهات العيش المبعثرة...

هل لهذا الورق من رائحة؟؟ من لون؟ من هوية...

تصمت صافيتا كصنم يموت للتو وتغمض عينيها ورأسها يتكئ على الجدار المغلف بالخشب، شفتاها بلون الأرجوان، أنيقة ومشعة لكنها مهترئة بمعادلات الجمال الصعبة والمتناقضة.. تهرب مني وتركز نظرها على الزوايا الصغيرة في الغرفة وتجيد الهرب بعينيها كقلب يتجاهل وجعًا قادمًا من الأقربين وتفتك بها البارانويا دون مقاومة ويزورها السهاد قبل كل غفوة لتكتب على دفاتر حساباتها

حروفًا بلغة الظلام.

تلك اللغة القادمة في زجاجات بحرية متآكلة، قاموسها بكل لغات الأرواح يطفئ شيئًا بداخلنا.. فنندهش ثم نثور ثم نحزن ثم نستسلم ثم نتمنى لتلك الحكايات أن تنتهي في صورة الذكرى.

لا وجه لي... كم يضيق هذا الكون بي حين أشعر بأن رسائل من هو مثلي لا تصل... لم تذكرني السماء حتى ببلاغ واحد من الحب كي أمحو ذلك القهر المعجون بالخبايا التي تتقاتل داخلي وتجعلني أتآكل عفنًا وأصدأ وأرجم ذاتي وأشك في صلاتي وكأنّ من سبقونا نذروني رفاتًا للضياع ومواكب أسراري ما سارت بالخوف ولا بالفرح... مدججّة بسراديب اليأس...

يرن الهاتف الأرضي للعيادة وكيف له أن يرن في الساعة المتأخرة من الليل... أنقطع عنها وأنا أتجه صوب مكتب السكرتيرة كي أجيب ومن ثمة ينقطع جرس الهاتف وأنا أرفع السماعة فحسب.. أنتظر لوهلة صغيرة أن يرن الهاتف من جديد ربما ولكنني أسمع غير صوت الهاتف باب العيادة الخارجي يغلق على مهل... أركض في اتجاهه...وكأن أحدهم لاذ بالفرار... غادرت صافيتا وهي تحمل همها بخجل باسم وما زلت أراها مؤمنة بأن ينقذها الحب يومًا على كفي رجل تتعثر بين وجنتيه كقبلة ساخنة... وما يخيفني أنني أصبحت

أغادر نفسي إليها..

ألبس معطفي الشتوي وأنزل خلف أنفاسها مسرعة... أشعر وكأن أشلاءها ما زالت على الأدراج مبعثرة، لا أحد يقف أمام السيارات المصفوفة على عتمة الرصيف المقابل.

شارع لاجيتيه، كوكينيا، الخامس عشر من شباط 1980

أثمل بعطر أنفاسه... ضممته عمرًا بودائع الحب الثقيلة، أظهر لي الحياة بلون توابل أحلامي لا بطعمها!

كان لي دواء الروح الذي لم يمزجه خيميائي بعد، وبعض الروح التي أودعها الله في جسدي ومزجها بأمسي وصمّم بها عمري المتناقض بهجةً... من هنا بدأتُ، من رحيقه المطلق اللامنتهي.

«ليس هنالك من نهاية... فكل البدايات أنتَ».

أنتظر أن يرنّ صوت حذائه في الرواق... أبتسم لعشقه فتتقاتل الآلام من حولي وتنطوي صفحات ذلك الماضي الذي استخرجتُ منه مجموعة الإنسان التي كانت بداخلي شبه ميتة.

منذ هذه الليلة من منتصف شباط...

لن أحتفل بعيد الوحدة البائسة.

لن أجيد فن الانتظار..

لن ألاعب رهانات الدقائق..

لن أستهلك اليوميات كباقي البشر...

... فلم يُخلَق الوقت لكي يُستهلك إنما خُلقَ كي نجيد عليه فن الفرح...

تفزعني صافيتا وهي تبتسم وتلامس كتفيها عناقًا وتشعر به وكأنها في تخاطر سحري عميق، بأنه قد أتى... وزمهرير الريح خارج ينفض غبار الغيمات من دمعات مطرية شفافة.

ذلك الرجل الذي أنتظره على سرير من أعياد...نعبر معًا باب روحه ويضيئني بوهجها كشعنينة برّاقة... وصوته كناي انتظار ينصرني لغفوة موعودة على صدره...

يزفّني حين أنظر إليه من عوالم أحزاني أسيرة إلى عالمه... فما أصغر الكلام حين تكون القلوب في مقامات عشق كبيرة، لا تريد الكلمات ربما أن تفسد تلك النوتات المتبقية ذخرًا لصهيل الحب في هذا الليل الذي أصبح يصادقني ويباركني ولا يبخل على سهادي المعتاد بكينونة عشق لا منتهية... تلبسني فأصبح بين ذراعيه الأنثى الوحيدة في هذا الكون...

تحدق صافيتا فجأة في ذلك الفراغ الموجود حولها وكأنها تستفيق للتو، تنظر لي بطرف عينها وتتجه للمرآة وهذه هي المرة الثانية منذ عشرة لقاءات جمعتني بها، أراها تحاول فيها

التأكد من هوية ملامحها ربما تخاف صافيتا النظر إلى المرآة، لم تكن لديها هذه الإرادة الكافية كي تعترف بأنها في مكان غير مكان الحكاية التي ترويها لي وبأنها ليست المدعوة «تهاني برجلجوت»، هذه السيدة التي تتحفظ صافيتا في الحديث عنها وكأنها سر جريمة غامض..!

تلامس صافيتا وجنتيها وتضع أصابعها النحيلة على ذلك الاحمرار المتساوي كجناحي فراشة ربيعية...

أسترق النظر إليه، وأنا التي لم تشتهِ رجلاً يومًا، كنت فقط أفارق وأجيد الفراق بقتل الذاكرة، سيراني جميلته مهما عوى هذا الداء على أعصابي وجسدي، فهذا البيت الذي يجمعني به يكسر كل طابوهات العرب وينتقم من كل المدائن المغلقة التي لا تؤمن بقصص العشق... تلك المدن العاجزة عن إهداء قبلة عميقة لقلبين ينتحران بين ألسنة الناظرين... تلك المدائن المتناقضة التي لا تعاتب المتبوّلين والمتحرّشين بالوطن ولكنها لا تتردّد في طحن قلوب عشقتْ وآمنت بأحلامها... هي مدائن الفوبيا المختلفة عن روما التاريخية فهي حين تقتل الحب تكفّره وليس لديها مكان للنهايات الفالنتاينية...

هذا البيت الصغير الكبير القابع في مخيلة الأحلام المتبقية من أدب الإغريق القديم، يصوّر لي هذا الرجل كنصف إلهٍ أسطوري يداعب أجفاني بأنفاسه ويعلّق مشانق الخوف على

بسمة هاوية من ملكوت السماء...

أجدد بإرادتي المطلقة في دواخلي الهذيان به... يده التي تحاول أن تشعل بي بقايا الأنثى النحيلة تقاوم في جسدي صقيعه المتراكم... يده الصانعة لمقدّمة غرامه تهدهدني ليعتريني بكل بقايا جسده وبقايا الرجل الذي بداخله والرجال في مدائن الفوبيا قلة منعدمة، فيبدأ في هذه اللحظة ذلك الليل اللا فلكي، اللا منتهي، الرافض لما يتعارض مع جمره.

قرية رمسييس، الساحل الشمالي. 2019

أحبك..

أكثر من البحر، أوسع من الانتظار لذلك فقد تأخرتَ كثيرًا...!

أتوقف مباشرة عن الاستماع للراديو بمجرد ما يلتقط هاتفي هذه الإشارة الصوتية المرتبطة مباشرة بالإسورة الذكية التي ترتديها منذ لقائنا الأخير... يهيئني صوت صافيتا للكتابة وربما للجنون، صوتها دون صورتها تمامًا كصفقة «بالماس» لراقصة فلامنكو محترفة تشعرنا بحرارة يديها وترتيلة خصرها وهي تراقص صمت الأرض بضجيج كعبها السليط تحت ضوء خافت وبلون قابل للتجديد تغيرني هذه السيدة وأقلع عن الاستماع لحصة جرامافون الإذاعية وعن صوت كريستوف في أغنية «الكلمات الزرقاء» التي أحبها... أصبحت صافيتا اليوم أهم من أي وقت مضى وحالتها بالنسبة لي أكبر من مرآة مكسورة تعكس طيف الآمال الخائبة، أصبحت اليوم تختصر البرق وتمتص السراب وتبعثر الظلام وتعترف بمرضها وأصبحت أكثر يقينًا أننا نحمل آلامها معًا...

هكذا تقول صافيتا وهكذا أصبحت أعتقد مثلها أنها كانت لتكون بطلة مذكرات قديمة تقرأ من خلالها تـاروت أيامها القادمة، وما يثيرني فيها أنها أصبحت شجاعة إلى هذا الحد في ألا تتسابق مع قراءة هذا الورق، بل تحترم كرونولوجية أحداثه المتطابقة مع يومياتها منذ أن اكتشفت إصابتها بداء الذئبة قبل عودتها من فالنسيا والتهب جهازها العصبي المركزي ودخلت نوبة بارانويا أصبحت تتحكم فيها بصورة مخيفة وقاتلة!

بدمع مائة ليلة من الـوحـدة... أنـا بكل ما يكتنفني من السكينـة كزيزفونة مخضبة بالعشق، أخرج من دواخلي إلى زوبعة من المشاعر في رَاحِ رجلٍ مثلي.. كبحر الإسكندرية يرمّم مخيلتي بزبده، كنتُ يومها على موعدٍ معه، للدخول إلى عوالم الأمد الآمن... تحترق كتفي تحت أصابعه، ككمنجة عشق منسية تحت أديم المطر وتتجاذب الأطياف من حولنا ويقبّل انشراحنا حواف الكون الواسعة، كنتُ قبل هذا أواصل عشق الانتظار وحيدة وأطفئ على خطواتي القمر وأركض من أمامه ببسمة عرجاء تنعشها أنفاسه، ويركض خلفي كعرش حبّ بكامله ليمسك بي كأفق يتفاعل مع شمسه...

قبلةٌ تحرّك الجماد الذي بداخلي وتدفن رفات الخوف مع كل جراحات مصر التي أصبحتُ منها وأصبحنا كإفريقيتين تائهتين بين حاضرٍ يهزمنا ويشيحُ بوجهه عن حكايا أمسنا

الكبير... أترنّح بين يديه كنسمة حبّ دافئة وبعدها نتوقف من جديد لنعالج في قلبينا صقيع الخوف بشفة طويلة النفس فتتناثر من حولنا أضغاث غيمات مبتهجة تراقص حلمي به على مهل...

ثملان بعشقنا، كنت مغمضة العينين مترامية الأحلام على كتفه... أشبه مدينة هادئة في ساعاتها المتأخرة الماطرة، أفتح عيني على قلبه وأغلق قلبي على مقاس الكون الصغير كلما رحل عني، ونغني أنشودة الليل الحالمة، ولا أفرّق في ذلك الظلام صوته من رذاذ المطر... لا أفرّق وجهه من مساءات كوكينيا التي ترفل بالحيرة والانتظار مهما أطلتُ النظر في عينيه اللامعتين كسحابة زجاجية ألمح فيها وجهي وعقود السنين الجارحة متدليّةً للنسيان...

ابتسمتُ علّه يخبئ لي حوادث حبّ عابرة معه فدفعني إلى الحائط ليرنو بي إلى أفياء القمر... يبثّ في قلبي سراديب الفرح بأنفاسه وحواسه المتراكمة حولي ويعزلني عن كل ما يدور خارج روحيْنا ويحبسني بين أطراف ثغره تسليةً لمساءات عاشقة.

يحدثُ في الحب وحده أن تتماثل الحرية والعبودية حين تعنيان معًا: التعلّق... تلك الأوقات الفارغة المفرغة لم تعد تعني لي شيئًا ولا تناديني لممارسة شيء... أصبحتُ أدمنُ

أنفاسه المشتعلة برهيب الشوق والدمع والماضي، هو ذلك الرجل الذي يشبهني في الخروج من تخاريف الصمت إلى بارانويا الهروب للحلم... يشبهني في شهقة دمعه المتناثر حول حكايات من عمق الأمس، فلا يمكن لعقل امرأة نقيّة في الحب أن ينسى عظمة رجلٍ لا يخجل من البكاء أمامها.

و ضممته إلى صدري في تلك الليلة كفجرٍ يعانق الظلمات ليذكّرها أنها مجرّد نورٍ منطفئ... وأظهر لي ذلك الانصهار في دواخله غبطةً تحاول الخروج إليّ... أنا التي علمني الحب منذ أن بحثتُ عن نفسي ألاّ أبالي...!

في سكينة أسقطتْ نظراتها على أصابع قدميها النحيلة الحافية، كغيمة تشرينية تساقطتْ حول سرير من أعياد... أسمع بعض الأصوات تهز نواعير أحبالها خارج صدرها... ولأول مرة أحسستُ بسكون رهيب وكأنّني في حضرة شيطان كبير يقاتل بعنفوان آذانها العاشقة بترانيم ترتّبُ أهّلة غدها كما تشتهي ويأخذ من عمرها قَدْرَ استطاعةِ شرّه... انظرُ إلى تأملات وجهها وكأنها العاصفة، اشعر برفّات عينيها الكثيرة والمتسارعة وهي تتأمل الفراغ القائم من حولها كقطعة حلوى لا غلاف عليها.

الشقة رقم ٦٠... الشارع القديم...نورت بيكورت. ١٩٧٩

نعم.. فهكذا تكبر النساء في مدائن الكبت... من حيث أتيتُ روحًا مسلوخة الهيكل، لا تعزلني الجدران عن واقعي لأنها تسمع في عمقي تسابيح الألم، تهزني دقائق الشكّ وأجراس الوجل وأرى حياة تشيح عن أسئلتي بشعرها المسدول... تُطهّرني الدموع بعاقلتي القاصرة قهرًا...لا طريق نحو النور وكأنها سكتة «سوميا» الأخيرة كلما قدم المساء حاملاً أشلاء

الانتظار إليّ، فوجدني الليل كما كنتُ... كحقيقةٍ تنتظر اليقين، كل المسايا ألم... أصوّبُ وجهي نحو حلم لا عطر له وأحاول أن أستنشق ذرات الغد برماد أمس وأقبع في منتصف المسافة مع حلمي وأواصل العيش بلا جدوى... ألامسُ شفتيه بقبلةٍ تراقص الوداع في لذتّها ولا أدري أيضا لم أشعرُ بأن الحياة عادتْ لتقتلعَ من براعم فجري الندى... كلما استقوى خيالي على وَهَني بقَدرٍ يخالفني كلما وَعَدَ، فأسكرتُ نفسي بآمالي وآمنتُ بي كصنمٍ مجنجٍ يتطاير بين أصقاع الدنيا...

للأرواح جنازات سماوية... مراسيم يقيمها الرحيل خلسةً لكل ما ينتشله من على هذه الأرض وأقيمها في داخلي لفصول ما عادت تعجبني... يخيفني أن تستحكم الألفة دوني كلّ مخلوقات الأرض، بلغ الطوفان خزائني حين لبست الإسكندرية ثوب السكينة والمطر... أصبحتُ أصارع الدواء ولا أجرؤ على صراع مرضي، ما أبشع نظرتي إلى الآتي وبين لساني وشفتي كلمات صامتة تدور في ثنائيات كثيرة ما زالت مليكة خيالي، مجاز يعانق حقيقتي وكأن أمامي فرحتان، واحدة برائحة مرّة تمشي ببطء نحو النهاية والأخرى بعجلة بيضاء تسري عليها الأيام كالبرق... كنتُ أسمع صوتاً يناديني، يشير إلى أسرار هذه المتاهة، يقذفني من زاوية لأخرى كدمية شطرنج صغيرة بين أعمدةٍ منعتقة الأرجاء بدقة...

أسأل نفسي ما الذي يجمع بين صافيتا وتهاني برجلجوت.؟..
وما الذي يجمع كوكينيا بمينتيكيو نورتبيكورت؟.. وما الذي يجمعني بهما معًا غير وجه هذه الصدفة!... و أشتهي أن أبحث عن وهران في كل المدائن، لكن لا مدينة لي كوهران، لا مدينة في الدنيا قدّمتْ لي أجزاء روحي بطعم الصبا وبسمة الحلم ووجع الأنثى... لا يحمل الكون بقعةُ يمكن لأحجارها أن تناجيني كنبيّ يكلّم ربّه بعد حيرة ووجلٍ... مثلها... ولا خبز يغذي هذا الغياب، أوثقتُ صافيتا عمرها بعيدًا أشواك الذاكرة حين أصبحت الوحدة كما الموت تغتال من حولها الفرح... تمدّ يدها موازاةً مع جسدها كشهيدة صراع مستميت، هذه الأدوية تمنعها من الحركة... ينخفض هيكل أنفاسها المتعبة كصلاة خاشعة، ما أبشع نظرتها إلى الآتي، وهي تشتهي أن تسافر لعالم يثبتُ لها أنها ما زالت على قيد الأمل، أو ربما تشتهي صلاة مع ذاتها لا تحكمها المهدئات..

وتتواصل أحلامي كما لو أنّ لا أحد غيري يحلم على هذه الأرض، تلك أنا بكل تفاصيلي، سقمي يتفاقم وولهي يتطاير كاللهب... يصنع الخوف بداخلي قوالب لا تنكسر، منثورة روحي على جمر الجحيم... آه... لا يمكن لأحد أن يقنعكَ أنك بخير وأنتَ تشعر بخلاف ذلك، ما زلتُ غير مقتنعة أنني مريضة وكلّ ما يحدث لي هو مجرّد انعكاس لواقع مستتر لا يمكن أن يُمارَس كعادةٍ علنية...

في حلقة معزولة أراقص هذا الليل وأرفع ضجيج خصري إلى روح الرجل الذي أعادني إلى الحياة ورحل... أنا... رفات ما بعد السقوط، أتلاشى في هذه القاعة المليئة بالظلال، أذكر في تلك الشواطئ مواعيدي معه... لا تأتي الفوبيا من العدم وإنما من غياب من رأينا فيهم ذات يوم «وطنًا» فتهافتتِ المآسي على حلمنا بهم ووجدنا أنفسنا بعدهم مجرّد ألعابٍ خُلِقَتْ كي تضيع في المهب... من يومها، وحده الليل يجالسني في غيابه كي أحظى بمكان في توابيت الصمت التي يسافر بها من هو مثلي من حياة الى حياة... أو من «لا شيء» إلى «كل شيء»... أنا امرأة تحيا فقط بجزئها الطفولي المدفون في الأعماق، فكل ما يُسعد تلك الدمية القابعة في مخيلة جسدي، يسرّب لي أنفاسًا كي أبقى ... كي يجتث قدري روح البسمة من صميم أوقاتي الغارقة في أوحال الهروب، لذلك لا يتعبني أن أحرك عالمي المشلول على عجلة موت بطيء... سوف يبدأ الآن ـ دون جديد ـ ليلٌ كالسابق.

ما أبشع الفقدان حين يستميت ليبقى كيفما كان الوجع... هل كل الأشياء صعبة إلى هذا الحد...! صافيتا شبه ميتة تستحضر الأشياء التي لم تخترها وما أكثرها، تستحضر وجه أمها وصوتها العالي وخصرها المشقق، تستحضر تلك الفتاة القروية الرّحالة التي تقيم بين جوانحها، وبعض الشرفات

والأتربة والمرايا... وتشتاق إليه وتكررّ شوقها إلى نفسها في حبها له... ولا تعتبر في كل مساء أكتب فيه قصتها أنها تكرر لي الأحداث، مرضية التكرار والحزن أصبحتْ ذا جدوى لأول مرّة...

روحي لماذا تتألمين، لماذا تسافرين بكلّ هذا الإصرار إلى خارج جسدي، لقد عشنا معًا كل دراماتيكيات الحياة دون أن نشتكي فلماذا أنتِ اليوم مهترئة كصندوق قديم مفرغ... ما كل هذا الخوف الذي يعتري حواف الذاكرة ... كيف للأمس أن يكون مخيفًا وهو منتهٍ... روحي، لماذا لا تلتقي بداخلكِ السيّدات القابعات الساقطات من جبين أمسنا... كيف تمزّقتْ جسورهن ولم يسقطن بعد من وجع الفؤاد... لماذا هاجمتكِ البارانويا لوحدك وأبقتْ على قوّتهن وهنّ يتحاربن بداخلكِ ويقاتلن تجاعيد الزمن وهنيهات الفرح.

روحي... كيف تراكمتِ الأشياء من خلفنا دون أن ننتبه للبهجة في انسحابها الصامت، ربما كان من الأجدر بالدواء أن يحارب انفصام العالم الذي من حولنا... كان من الأجدر أن يُكتَبَ على صلاحيته أنّه معمول لكل من هم مثلنا لا ينتهون رغم أنهم ينتمون إلى غير هذا الزمن... لا بد أنّك أيتها الروح قادمة من جسدٍ ما... من ظلامٍ ما وُجِدَ قبلنا، قبل مئات السنين أو أكثر فلماذا تخافين الموت إذن... وتصريّن على

الصمود... علكِ تنتقلين إلى جسدٍ يحمل الأسى عنّي لحياة أو حياتين، أنا متعبة بكِ لدرجة أنني حلمتُ لو جمعني الموت بمن حملوكِ قبلي... كنتُ سأسألهم عن زمنهم وعن سرمدياتهم الليلية التي لم تتمزق إلى أن وصلتِ إليّ...

كلّ الأشياء مبهمة، أنا ولدتُ دون اسم...لا اسم لديّ... أسمع أصوات أسمائي القديمة كجداول تتغنى على طول دربها بأصداء كنيسة مهجورة لا تهز أجراسها سوى عواصفُ الشتاء من فصل إلى آخر...

متعبةٌ أنا... ولا شيء يعجبني، لا شيء يهمني في هذه الحياة سوى الرحيل منها علّني أراها من نافذة أخرى، من زاوية أجمل... أريد أن أرى هذا العالم يتحرك بصدقٍ ولو لمرّة واحدة، أريد أن ألفَّ الأرض ملاحقة النهار في كل شطر حتى لا أرى ليل النصف الآخر منها... أريد أن ألاحق نفسي لأرقى الى عتبة «العادية»... كي تغبطني أشياء تافهة وأدور بكلّ إرادتي في فلك الأحداث اليومية مثلما يدور البشر إلى غروب الشمس... أريد أفقًا منسيًا لا يراودني عن أحلامي البسيطة.

أرى نفسي الآن بعينٍ غير ثابتة ... كلما وقفت في هذه الشرفة وكأنني واقفة عند سور مقبرة كبير، يشد خصري... هدوء أصمّ فوق التراب، لكن الحياة تحته ليست مخيفة بقدر الشرّ الذي يحكم به الإنسان عالمه... هي ليستْ مظلمة، يقال

إنّ للرب نورًا لا يقاس حتى بسرعة الأطياف... هي ليست هادئة لكن ضوضاءها وجدتْ على الأقل لأحكامٍ مستحقّة.

أنا مجرّد عاهة... مجرّد عادة تحتفي بها الخيانات... أدير الآن رأسي لأرى الذات الصغرى التي كنتُ أحملها يومًا، أسمع صدى ضحكاتها، كنتُ أسمع الأشياء فقط ولكنني الآن أراها... بالألوان وبالأصوات الدقيقة... أشتاق إلى صوتي في ذلك العمر البهيج، كانت دوامة الأحلام ضعيفة الدوران وقتها... كنتُ أحبّ والديّ ولم أفكر يومًا كيف أنجباني... لم أفكر أن العلاقة التي قدمتُ منها إلى هذه الحياة هي مجرد آلية تقرّرها مزاجياتنا... لذلك نبكي جميعنا بمجرد ما نستهلك هواء هذا الكوكب...

كانت أمي تجيبني أن أترك كل الأعباء إلى الكِبَر وكبرتُ دون أن أبحث عن إجابة، لم يكن هنالك من حقيقة تستحق العناء... وانطلق قطار العمر فجأة إلى «لا مكان» وغيّرتُ مقعدي فيه دون أن أشعر وتصادمتُ مع وجوه كثيرة لم تستأذن رغبتي وامتلكتُ يقين بعض الضياع... ما من عناءٍ أوصلني إلى الحقيقة، أصبحتُ أريدها بأي ثمن ووقفتُ كثيرًا أمام مرآة الحلم وانعكاسات الجذور والعُرْف والزيف والدين والهوية والجنس والأرض... كل الحقائق تحتاج إلى وسائط، إلى مواعيد تغيّر نصفها قبل أن توصلها إليّ وتغيرّني قبل أن أصل إلى نفسي...

جالسة على مقعدها في ظلام تلفه المرايا لتبقى خريطة روحها الشاسعة سجينة لخبز الشجن وتهمس عند كل سقوط:

وحدهم الأتقياء يقتاتون وليمة الوحدة.

في مثل هذا اليوم رددت تهاني برجلجوت كلمات مثل هذه لكن صداها ما كان ليجيب...

كيف لسهام الليل الحالك أن تصيب صدري وأنا التي أرتدي قلبًا من حديد؟؟

أردتُ دائمًا أن أختار متى أنتهي منذ أن أعلنتِ الأرضُ خبرَ ولادتي من ليلة جنس سادية، قُتلَتْ شهرزاد يومها لتولد شهرزاد أخرى واكتفى القدر حينها بإخراجي ميتةً إلى بيئة تجيد تعاويذ الغرائز وتنخر في جثامين الفرح ببراعة وتُسقط كل أوراقه من تقويمها الأزلي... يُقال حين يحكى عنيّ أنّ رسالتي ابتدأتْ بين عهد وعهد في باحة غبار أسود.. فأنا ولدتُ مع الوجع من جديد وحملتُ على عاتقي أنني أنحدر من سلالة -الشقيّات- ولدتُ كما العذراء خلاصًا لآلامٍ لا أعلمها بعد... وكنتُ حين أقدم إلى «بيكارديا» أشرح لأصدقائي كيف أننا في الشرق جميعًا أنبياء ... مصلوبون على أعواد ثقاب كبيرة مشتعلة، نرفض بعضنا... نصطاد البشر... ونحمل اسم «الله» لينعم الشيطان في خفائنا وأقصر كذباتنا تصمد على الأقل دهرًا... حتى النهاية.

بين أبنية قريتي، تعلمتُ قبل ثلاثين سنة أن يغريني البقاء إلى جانب «الله»، أن أهرب إليه إذا تعالت الأصوات وماجت بحار الغضب وأن تحجبني أشولة الفحم المهترئ بمجرد ما ترغمني نيران الضجر على الصراخ إلى النور.. هنالك على مخارج قريتي ما زالت آلاف الأرواح تعدو خلف جيوش البراغيث بلا جدوى... ما من أحدٍ علّمني كيف أرى «الله» فصلاً جديدًا في كل حين، بلا مراتب، بلا مؤهلات... عارية أوجدني كي أكتمل بنوره... عطشى أسير باتجاه أباريق مائه كلما احتجتُ إليه...

حملتُ منذ ذلك الحين زلعة الانفصام بين غيطان روحي المتعبة وتشنقني إلى الآن أغلاظ الأيْمان التي يعلّقون بها مذابح المحبة على زحام شعابهم القاحلة وعلى الرغم من رحابة بحر «النورت» في ليلة كهذه، يضيق صدري ببلدة تبعدني آلاف الأميال من العناء والكدح والصمت والفراغ...

وبقيتُ أنا والحلم في محظور الوطن رفقاء... في ذهني صورة أرضنا وأمنيات تغور إلى متاجر البؤس كلما نطق الفرح.

وأؤمن ككل نساء الشرق أن الأماني التي يغتالها الأمس في صدر امرأة منا مرة واحدة، تُولد في غدها ألف مرة... ولا يستوفي السعي إليها خاطرًا واحدًا من خواطرها الشرسة، أنا التي أولد كل يوم حتى أمحو ولادتي حين تصحّر ذات

فجر وجفّتْ ينابيعي من يوم ما انتسبتُ إلى قريتي الملغمة بالجراح... وناحت الأمنيات في برّ أحباش واسع ومن بعدها تعلمتُ لغة الهروب بكل وعي لأن لا شيء كان يوازي عالمي واعتبرتُ نفسي زاخرة بالأتراح وتقطرتُ في شتى هذه الدروب، ومن يومها وهويتي مجهولة النسب... أصبحتُ بنت كل الأماكن... أحارب في محور لا يمكن لدوائره أن تكتمل وكأنّ وظيفتي أنني مفصولة عن عوالم الإيقاع... مشتتة... مقسمة بجدول سيمفوني... لا يمكنني أن أختار من يعزفني... منفصلة الوشائج في مائة ليلة عسيرة تتوالى كمراحل الخلاص الكثيرة... وأصعد من مذبح إلى آخر فقط لأنني مررتُ من هنا... جنب المذابح ولم أكن لأكتشفها يومًا وكأنني أوديسة ملحمية عليها أن تظل جائعة وأن لا تسكنها شهوات ترابية أو نارية... تكون نهمة المفعول وساحرة حين يُطلبُ منها... فقط... تنفّذ دون تشتهي... وتلتقط الرغبات الموصولة بمزاج رمادي ساكن... دون أن يكون لها أي دافع للبداية أو للنهاية، ومن يومها أصبحتُ أيضًا عجوزا تحكمها الضرورات دون أية محاولة للخروج من الإذعان أو العبودية... تستجيب للمفاهيم السائدة وتكون كاملة العري حين يريدون منها وكاملة الانصهار في قوالب سكّها السائد المفروض لحظة انطلاق عمرها بصرامة ودون أن تكون لها منزلة في

كل هذا الإملاق... في كل هذه الغوغاء دون احتجاج... كنتُ كثيرة الامتنان لأنني موكولة... وشديدة الفرح لأنني عاهة «مسكوت عنها» ولم أكن يومًا حقًا ضائعًا... أو مصدرًا للحياة...

كان الشقاء وليد نظرتها إلى الآخر وإلى ما حولها... كانت تفضل أن أناديها برقم بدل اسمها كي تشعر بالضجيج الذي يلفُّ عمرها بعنهجية، ولم تجد يومًا عزاء في كرهها الجذري للسكينة وللسبات الأجوف لذلك ما زالت تركض كقندس صغير، لا تحاول ربما الوصول إلى حكم قاطع على قدَرها بقدر ما تصبو إلى الوصول لعالم أفضل ولا يتعبها أن تواصل لوحدها بناء هذا الجدار الشاهق حولها ويغبطها كثيرًا أنها كسّرتُ في ركيزتها جميع الأطلال...

أَجْـبُـلُ نفسي أولاً على ألاّ أشتهي ضـروبًـا من الفصام والهذيان... هذه الصفحات تسجيل لذاكرتي وأنا أقع في ذاتي يومًا بعد يوم وأؤمن أنها قادرة على اكتساح الأرض لأعود حين أجدني زاحفة على الأسلاك، وأكتشف أننا لا يمكننا اكتساح حتى زاوية الشارع المجاور معًا... أراقص السماء ولا يهّمني أنني كسرتُ وعدي في لحظة عبث، أبرحتُه ألمًا على دفوف صخر كئيب ولم أسْلم من قصصي الطويلة وكأنني خيمة تخفق تحت أشرعة الاغتراب...

كافية أنا لإحراق الكون ولكنني ضئيلة أمام مناضد المتعة كسحابة من بخار. أشعر بصوت بكائه كقطرات مطر تنزلق على زجاج صدري... أكلّمه وصوته عابس ممتنع على أعماقي المربوطة بشريط أسود... ألهث بتثاقلٍ وأثور على هذا السرير الذي لا يعرف مواعيد الأعياد وأتهدّل حتى أمسك بحلمي... فلماذا لا يلتقطني ضوء الصباح حتى أطرد خطايا هذه الجثث المحيطة بروحي... هذا الطفل لي إنْ كان حلمًا... فقد تبنيتُ الموت مرّات كثيرة فقط لأنني آمنتُ بالحياة ولم أنفّذ يومًا رغبتي الأخيرة مع أنني أُجْبِرُنِي على الاعتراف وفي كل ليلة أحسبه الأخير... واحتفظتُ بمدعاتي كي أمنع نفسي من الشجن وظللتُ متكوّرة وتعيسة...

يكظم الشجن مني غيظه ويغفر لي بعمرٍ قدره دقائق وأصبحُ سهلة الإفلات من قبضتي وكأنني مدينة غير مجدية يجوز اكتشافها ليلاً... أقتنص هنيهات الوعي في عجل ويتسنّى لي الوقت فهذا فجري الأوّل ولم يوقظني الغضب بعد... ألازم فراشي... أعتذر للغياب كما دومًا وأمقتُ رائحة هذه الأرضية الخشبية المبللة وأمقتُ منظر تلك السطوح المكفهّرة وكأنّ روحي مجرد رواق ترابي أجرد...... باردة أنا ومكسّوة بأوراق صحائف قديمة، أرتعش كظلّ شجرة خريفية على شمس آذار الزاهية... ضاحية مستقيمة وكئيبة لا تجيد محاكاة

الجنائن... متشابهة يسلكني العمر ككأس خمرٍ عتيقٍ ويرتبكُ حين يتحدث عني برغبة جامحة... كنتُ في العشرين حين عصف بي هذا الطقس في مقطورة منسيّة ونبذني كقصيدة حريّة يسارية الهوى ومن يومها اختلفتْ مشاربي ولم ترضَ نقمتي على الأشياء وحالتْ ألواني إلى الذهول برائحة وقارٍ كبير.

شيراتون المنتزه.قاعة المعارض. الإسكندرية 2019

الأضواء ملقاة على صافيتا وهي واقفة أمام الحضور، أنيقة لا يعكس مظهرها موقد الرماد الذي يسكنها، ترسم بسمة صادقة على شفتيها بمجرد ما تلامس ذلك الدرع التكريمي لشخصية العام لمصممي المجوهرات في مصر والشرق الأوسط...لا أحد يشعر بصافيتا في هذه القاعة كما أشعر بها؛ لأن لا أحد يراها عاجزة في هذه النشوة الساكنة والفرح يحاول أن يحط بها رحاله منذ زمن وهي تحاول أن تشعر حقًا أنها في حضرة هذه الأرض من جميع الحاضرين من البشر، تهتدي لها الأيادي تصفيقًا فتهتز كمروحة زرقاء في ذلك الفستان التركوازي الفاخر، ثم تغازل أصابعها شعرها الأشقر من الخجل وتبحث بعينيها عني كمن يحاول كشف بعض لوائب المجهول، القاعة كبيرة والحضور غفير، لكنها لا تيأس حتى تقتربُ مرة أخرى من النظر إلي، فعلاً أشعر بها تمامًا حين تفيض دواخلها ويصبح وجهها المتعرّق بلون «الكُمْتَةُ»...

اقترب منها حين يبدأ المدعوون مغادرة المكان، لا أحد يعيرنا الآن انتباها، أمسح عن جبينها وهي متعبة ومنهارة

ويدي الوحيدة تعادل في ذهنها أيادٍ كثيرة ، وكأنه جَمْعٌ غفير من قوابس يمسحون عن الناس وجعهم ويوقدون وجاقهم كي يدبّ فيهم نبض العمر من جديد.

كينج مريوط. الإسكندرية 2019

اغدودقتِ الغرفة بها كعين مشبوهة الخطيئة، بكل ما تحمل روحها في انتظاره، فقط هو الوحيد الذي يقيها سأم هذا الغداف... أنظر إليها كثملة تتأمل خشبة حانة لا يمكنها أن تقودها سوى إلى موت رتيب، أتداعى أمامها كجدار مهزوم يقي عشرة عبيد يصوِّر لهم أنهم أحرارٌ من الموت بمجرد ما يتماثل لهم «أغاريقون» شجرة منسية مقطوعة للحطب... وكأنها تمدُّ يدها إلى جحيمها وتتساءل عن وجهها المستعار.

يعدني على غير هدًى لحظة احتراقه أن يستأثر باسمي هذا الليل المغداد الذي يعتصرني خمرًا لوجائه... يجلس إلى جانبي من جديد وتجلس خلفه مباشرة سيدة تسكنني وأكرهها، تتربع على ذلك الظلّ الخفي كثعلب وتصنع من هذا الفضاء ليلة هَلَكَةً تشبه جوع العذارى لحب منطمس في جوف حوت غريق، أقررّ فجأة ألاّ أفوّت هذه الليلة كالسابقات، أحاول أن أرى ملامحه، وأن أحتفظ بوجهه كي يشرق في غدي مداه الأبدي، وأكسر صخر ذاكرتي على سحائب تلُّف عينيه وجبينه، وأستشرقه كيوم نظير تحت شعاع ضوء الحي المنسيّ الأحمر

الذي يدق رواق المسافة الفاصلة بيننا والتي لا تتعدى أكثر من نَفَسٍ أسمعه ينوء في هذا الجو الجحيمي... أرفع جفني الأعلى فأراه قريبًا كحلمٍ قرير ولا أقوى على الحراك كجثةٍ ورعة تنتظر أن يبكيها أحدٌ على هذا السرير منذ دهرٍ على الأقل...

وفي رفّة عينٍ وليدة أحاول كحكاية ثلجية مستوردة أن أسير إلى نفسي به في كل هذا الهجير الصاخب، أن أكون مجرّد كهف مهجور يمتطي معنى الحياة مع كل صيّاد عابر للغاب، أشعر بجسدي للمرة الأولى عضوا فعضوا ينتفض، وهو لم يكن سوى مضغة ميتة دفنتْ بالخطأ فوق سطح هذه الأرض، ينطوي الرعب بداخلي كلما اقترب مني بأقل من نَفَس... يواصل دربه نحوي بثبات وأواصل الإصرار على دبيب الحياة الخافت في صدري، وأُغضِبُ كل الخفافيش التي تتطاير من حولنا محمومة وبشعة كارهة للأمل، عيونه حوراء لكن ملامحه ليست عربية، أنا وهو ربما لا نشبه «كوكينيا» في شيء سوى أننا أتينا باحثيْن عن «لا شيء» أو عن «كل شيء»...

اعتقدنا ربما أننا بالبحث عن الماضي سوف نكتمل وسوف نولد من جديد أو ربما أنا من اعتقدتُ هذا على الأقل... قبل أن أغرق في طين عتيق حملته منذ أن غادرتُ قريتي إلى «بيكارديا»، ولم يُمكّنني رغم كثرته من صنع مزهرية واحدة، هذا الطين يصلح للغرق فقط.

يحاول في هذا السواد الرطب أن يكون لي كَكُوَى النهر، لكنني ما عدتُ بعد هذا زرعًا فتيًا... يضع يده على جبيني وأشعر بمجرد ذلك أنني أعرف هذا الإدراك بلا دليلٍ مسبق، وأرتاح له وكأنني جدار إغريقي في معبد، يحن إلى يد ماطرة تمسح عن ثُلْمَة عميقة تعاقبتْ عليها الحروب والأفكار وداهمها الدوار ونُسِبَتْ بالتعاقب إلى أديان كثيرة ونُسِبَتْ بالدم إلى حضارات كثيرة، مع أنها لم تكن تريد ولم تكن تعي... فهي كُوَّةٌ في الحقيقة متعبة تريد من التاريخ، «سنمارًا» عجوزًا يقيمها ويرحل.

يهزج ذلك الصدى صوبي فأفّرُ من حلمي إلى صدره، أصبحتُ وأنا «لا واعية» أشتهي عمرًا معه، عمرًا مع رجل لا أعرفه ولا يعرفني ولا أدري بعد كيف يمكن لنا أن نلتقي في هذا المكان، وكيف أصبح في مقدوره أن يأتي إلى هنا في مواقيت كهذه، متقنة كرزنامة صلوات سماوية...

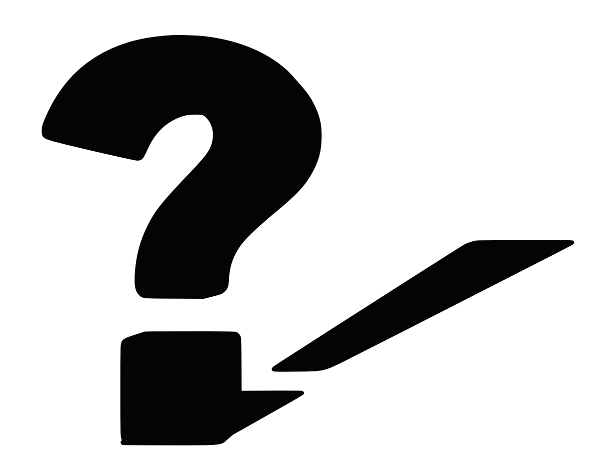
تفتح صافيتا عينيها فجأة وتجعل من مساحة هذا القبو الصغير الهادئ مسرحًا محترفًا لا رقابة عليه، تتحسس شفاهها وتلامس خطوط يديها ثم تقترب مني وكأنها تحاورني لا كأنها تستحضر ما قرأته في ذلك الورق الذي أشعر برغبة كبيرة الآن في ألا يكون جزءًا من هذيانها فقط، أصبح هذا الورق يهمني أكثر من صافيتا... تأخذ كفيّ وتقلبها على يدها وتقرأ ما تخطه من أسرار ربما، وكأنها ترى الأماكن التي لامستها يدي قبل هذا،

وتسمع ضحكات طفولية ثاقبة الفرح، وتشتم رائحة الورود التي مرّتْ من هنا وتؤمن كما أؤمنُ أنها ما زالتْ تذكرني وتشتاقني وأنّ بيتي في «النورت» ما زال يحمل عطري وفساتيني ورَكوَتي التي ظلتْ كما ظللتُ في بقاع هذا الكون غريبة... أتساءل هل يمكنها أن ترى في يدي هويتي التي لم تكن يومًا ورقًا أو جنسية أو لغة... هل يمكن لها أن ترى وطني وعقبان مدينتي حين تركتُ.

«الجزائر» فارّة كسنمورة صغيرة وكذلك ظللتُ منذ أن كادتْ جدران السجون لأحلامي وقُررّلي أن أظل عرضة للقيادة والصمت والعبث... هل ترى وجه النهار الذي راوغ في قلبي حمى الانتظار الذي لا ينتهي، لدرجة أنني رجوتُ لي يومًا أن ينتهي بالموت أو بأي شيء آخر... ذلك الانتظار الصعب الذي لا يصدأ ولا يقبل جدال الهروب ولا يأكله غبار ولا ثورة فقط يَقْبَلُ لقتيله أن تمتصه العتمة دون حشرجة...

أتعايش معي الآن كجثة بطريقة عادية؛ لأن حقيقتي الحتمية أنني وُلدتُ جثةَ تتشهى الموت - مذ أَدْرَكَتْ ذاتها - ذهابًا وإيابا... فهل خُيِّلَ يومًا لكل أولئك الرجال المتعطّرين الراكضين - كَمَيْهَى - خلف أنثى تشبهني أنني أحمل في صدري كبئرٍ ميّهة فئرانًا كثيرة وعناكب غاضبة، تنخرني في صمت خاوي الأعضاء لذلك ظللتُ بهذه الهوّة.

-مهما جويتُ -كسفينة نبيّ مغضوب عليه....



للمـرّة الأولى...

شقة الخواجة يورغوس. شارع لاجيتيه. كوكينيا. 1979

اصطبغ ذلك الرجل الغريب دساكر الليل بألوان الهوى، في غير موعده أتى، أراه يفتح الباب في خلسة طريدة الحذر، أفتح جفوني بصعوبة معتادة، يحمل هذه المرة حقائب صغيرة ممتلئة، لا يُقبل عليّ وهو لم يفعل مثل هذا من قبل، أنفاسه تلهث في دبيب ذلك السكون، يضع الحقيبتين جانبًا ويجمع بعض الأشياء التي لا أقوى على تمييزها ثم يتجه صوبي، يبتسم، يقترب من عيوني نصف المفتوحة... المجد لذاكرة الأنفاس فَبِهَا يبصر الأعمى جوعه للعشق في الوعر العجاف... أصرّ أن أسمع صوته وأراهن على إصراري، لكنه يخذلني من جديد... يفتح الحقيبة ويخرج منها قماشًا أسودَ كبيرًا.. معطف شتوي نسائي، يضعني في وضعية جلوسٍ مناسبة بسهولة جسدي النحيف، ثم يُلبسني المعطف..

يحملني على كتفه ويمضي خارجًا، تركتُ الغرفة فارغة من بعدي وتلك كانت المرة الأولى أيضًا فأنا التي اعتدتُ أن أترك كغابة سكرى – على الأقل – في كل الأماكن، في كل المدائن، نصف عمرٍ من غدائر روحي الساحرات، خرجنا

إلى ذلك الزقاق الصغير كلصّين متخاصمين يتلاحقان على عتبات البيوت العتيقة المضيئة، يحيطنا الظلام بحلكته كوطن وديع على خارطة عربية... يلفّ إلى الشارع المجاور في عجالة خاطفة، يدخل عمارة مشابهة، كل الحوادث تدور في رأسي دون كرونولوجية صالحة للسرد وأنا أنسدل على كتفه كرابية ربيعية، يصطهجني ذلك الصقيع بفرح... يتعثر عند مدخل شقة ما، يخرج مفتاحها بصعوبة مرتجفة... يفتح الباب فتصفعني شعلات نور جديدة على إيقاع بصري، فأستريح تحت أفياء الحواجب حتى أشعر بجسدي يُلقَى على سرير مريح ومن دون أن أرى، هذا البيت يحمل شعورًا عجيبًا بالمرح، توقّفَ نعيق الغربان السود الكثيرة في صدري فجأة بصمت بديع، تخلّلته موسيقى يونانية أوبيرالية... حفيف بعض الدفء الذي يحتضن قدمي يُشعرني بذلك الجَزْرِ المفاجئ الذي أنذر شطآني... أستشعر المكان ولا أفتح عيني بعد... بعض السرائر تحمل الأنثى على غير الكفن، لم أكن لأعرفها قبل الليلة...

يجلس أمامي على الأريكة المجاورة، ينظر إلي ويجيد الحديث الأصم بشكل مخيف... يقصف الرعد بهول فتنفجر النافذة على الحيطان المستميتة صبرًا منذ أن كان هذا الحي يدعى «لاغيتيه»، حي الفرح وكأن أحجاره تنتظر وهم العودة

إلى أمسها، كما أَنْتَظِرُنِي بغباء دون ملل، ويفعل بي قدري تمامًا كما فعل الإنسان العربي بآثاره وهويته في كل مدائن الشرق النازف...

يقوم من مكانه بعد برهات ثقيلة التأمل، ليغلق النافذة بإحكامِ غيمةٍ شتوية ملبدة، ينزع عني فستاني الأبيض المتسخ بعذوبة متفانية، يركع رأسي حتى النهدين كمستفيق للتو من خيبة نوم عميق، ألمٌ في أسفل رقبتي يجعلني أقاوم كصدى دعوة مصرّة على التحليق إلى رحم السماء، يدعوني كجندية تستريح من ضجيج الوغى بين ذراعيه، بعض الخطوات توصلنا إلى زاوية الغرفة القصوى، هنالك أن يلامس جسدي ماءً ساخنًا للمرة الأولى بعد دخولي في هذه الجولة التي لم تكن في الحسبان، تأتي غيبوبة «البارانويا» على غفلة أقسى من الموت، هي لمن لا يعرفها مجموعة مناكب تسير بكَ إلى فتات ذاتك الذي لم تدرك عنه يومًا أي تفصيل، تعلمكَ «البارانويا» كيف تكون مصباحًا مذّهبًا يحمل في فتيلته المضيئة بذرةَ موتٍ حتمي «لا مقصود»، ثم ترميكَ حين تعتاد عليها في مرتَفَع شائك يقع في نصف المسافة بين المجانين والعقلاء، ثم تسكنكَ ثلاثية «الحزن والشكوى والدمع الغزير»، ثم يقذفكَ أقرب الناس إليكَ مجبرين إلى مخابر الكيمياء ليكون وجعكَ فأرَ تجارب مفيدًا للباحثين... للطلبة... للأطباء...

يأخذون الصور معك باستمرار، يسجّلون أحاديثك، يغرقونكَ بالنصائح والهدايا.

تُعلّم «البارانويا» للأحياء كيف يحتفلون بعيد وفاتهم في مواعيد متكررة، تعطيهم بعض الحقوق التي لا تتاح للجميع، فرصة أن تكتب على وجهك كلوح قبر رخامي عتيق حكايتك وأمنياتك وأن تصمم تابوتكَ مسبقًا ببعض الأغراض الضرورية... وأن تحْضُرَ جنازتكَ بتكرار منتظم وأن تجيد فن اليأس فمهما شكوتَ ستظل كلماتك دون صدى... تتعلم للمرة الأولى كيف تكون حاسوبًا دقيقًا لغياب من أحرقتَ قلبكَ لأجلهم وأنت تزحف وحيدًا على أرضيات الغرف المغلقة، وترى كيف سيخاف الجميع منك رغم أنكَ مهترئ وطيب...

تجعل منك «البارانويا» أهزوجةً لامعة يعرفها الجميع، يحبكَ الجميع شرط أن تكون افتراضيًا... تقرأ عنكَ جامعات العالم، ويُترجَم اسمكَ كوعد أمين إلى لغات عديدة دون أن يفكّر أحدهم في زيارة قبرك الحقيقي يومًا...

تبكيني صافيتا وهي تحكي لي بهذه العبارات أنها واعية إلى هذه الحد بكل ما يجري ما حولنا... تدخل بكل هذا الوجع أشلاءها قطعة تلو الأخرى في حوض الاستحمام الصغير المقابل، جعلتُ من هذا القبو الهادئ مساحة لها تنفصل بها عن العالم بارتياح مرير وقاتل..

يـده تهدهدني بصمت الـمـاء كأنني فـي غدير بجنائن الطاهرين، وَجْلَى ألملمُ صقيعي المتراكم، يحتضن جسدي الكسير في ولهٍ منفلت فتلوح بي مناظر أعرفها – للمرة الأولى – دون أن أفتح شعاع بصري النائم منذ دهر تقريبًا في وعده المقيت... رائحة مبهمة تجتاح حواسي – للمرة الأولـى – وتهديني عبقًا من البشائر في هدوء وأنا التي كنتُ أقتات منذ الصغر فرحة بحجم نملة كادحة بعد حرب ضروس...

كل هـذه بالنسبة لي أشياء كبيرة، فأنا التي أقنعتني «البارانويا» بأن الفرحة قاتلة، لذلك كنتُ أحذرها دومًا في حين ما أتجه صوب الموت دون خوف... ولكنني الآن أرفض أن أقاوم، أترك الأشياء تمضي كما هو مسطر لها في منطق هذا المغطس... يتكئ ظهري على صدره ويغرقني الماء حتى العنق ويبلل شفاهي المشققة الباردة... وأغتبط كمن يسمع أخبارَ أهالٍ بِعَاد في حضرة محبة كبيرة تُفعَلُ بأشياء صغيرة كقطرة ماء... جميع الجدران والشراشف والأوراق ولوحات الرسم والأثواب المرمية أرضًا... كلها كانت تنظر صامتة منصتة لهذه الانتصارات الهزيلة...

يشدني الآن مع يده صوت مزامير خافتة تنطلق في فضاء الغرفة بإجلال يشعرني بأنني خرافية... أنا لا أفكر في شيء... عقلي مبرمج محكوم بشعور يعزفني الآن كناي الغروب عند

شجيرة كَهْلَة... لا أخشى الرعد ولا الظلام... أستعيد وعيي في هذا الفضيض... أنشد أغنية جسدي معه... وأؤمن بأثلام موسمي الواعد في سنة قحطٍ كفلاحة محنّكة... كأنّني أنا، يستفيق عنقي من شلله الكليّ على صرير قبلة تنقش على زمنه عقدًا من التوليب والنار وأجلس في ظلاله كإفريقية متعبة صادفتْ في سبيلها «رافينالا» برية هائلة، وهي تكاد تكمل كالأرض الميتة دورتها حول الضياع، وهذا الجسد الذي يتحول للتو لكومة طحالب ندية وَجدتْ لها حجرًا في خفاء الموانئ... ما يزال يقاوم معي ويكسر الأفول ويخرج من قطيع الصرائد إلى هذا الخريف الأحمر في هذا الحي الأحمر المغيّب عن زمنه.

يضع المنشفة على جسدي الأشقر الصغير ويخطفني كعربة جامحة دون برد يُذكر، ويسير بي إلى صباح ذلك المفرش الوديع... أصبح يعادل في نظري أعظم بديلٍ لوطن يأكل أبناءه دون خجل... وبدأ معي آخر هزيع الليل بصريم من «الديس البري» الشهيّ المعمول كالمربَّى وأخذني بطعمه إلى دربٍ سويّ... بدأتُ أتوقع بأية لغة سيحدثني...

وكأن صافيتا تجيبني الآن لماذا التقينا هنا، فمن «وهران» إلى «البلقان» نشبه بعضنا وربما أتينا إلى «كوكينيا» لذات السبب الذي لا يذكره الورق بعد... صرّجتْ - للمرة الأولى -

جُمَارى أحزانها وتكهناتها وصخبها بالنسيان... وألقتِ اللحظةَ في سَلهَبِ صدره... يا لهذه الهدأة المقدسة فحين ينطق الشعور تخرس جميع الألسنة وتصبح الكلمات حقيرة المهائر وتحلّق الأجساد وتنساب دون أن تدركها البصائر وتصبح الحياة بكل ما تحمل مجرد قرقعة فارغة، وقد تُقهَر البارانويا – للمرة الأولى – كعلجوم صغير يغرق في علاثة وحل.

يعتقد القلب الذي عاش عمره بين خوذان الشجن أن الفرح جريمة، فكيف لي أن أؤمن بمجيء صباحٍ يُنسيني هذا الكون في رقصة «فادو»... أذكر كيف أصبح ذات يومٍ الرّفاق أمواتًا يمشون باتئاد إلى كهنوت النسيان الكبير... أذكر كيف كانت الوحدة جليسة هذه الجثة المجدلية وأبتسم قيراطًا من زمن الطفولة وأنا أستلقي لأكثر من ساعات على هذا القماش الأبيض المارق... أفتح جفني ببطء كعجوز يمشي على عصاه، وأجدني أقف على قيد حلم الليل الفائت مفصولة عن العالم خارجًا ملتصقة بالنظر إليه، يجلس أمام لوحته وصوت أغنية هائمة من الفادو يلف فضاءه... يلتهمني بإيمان ككاهن خرافي بمظلم «بارناسوس»...

اللوحة ما تزال جوفاء... يسحب ريشته عنها ويرتشف عذب القنديد الموضوع جانبًا لبرهة، ثم يضع من يده كل شيء وكأنه يتذكر للتو أنني هنا بعد ليلة أولى جعلتني أبهى

من «كليودورا»... أنا قصيدة «التحولات» الحقيقية التي تكتبُ هنا في «كوكينيا»، من شاعر لا أعرف اسمه بعد، ألفي سنة بعد الميلاد... سنستكمل معًا «فن الحب» الذي ابتدأه «أوفيد» عامًا قبل هذه الألفية الجائعة، يلتفت لي وكأنه يسمع حديثي إليه، وأنا التي لا تقوى على إطلاق صوتها بعد... يقترب مني ويضع يده على جبيني ليعلن لي أننا حفيدا «أوريستيس» اللذان ورثا عنه عشقه للخفية في ممارسة الجنون والنقاء والفرح، سوف يسير زمنًا لنبلغ الكأس الوحيدة المعبّقة برائحة المحبة دون أن يُساورنا بعد اليوم قلقًا، نتنفس بصمت ويرسم هذا الصمت لنا دربًا قريبًا تُعزَفُ على مسالكه خذاريفُ الحلم المجيد التي لا تبلغها أسماع العقلاء...

في حضرة الحب الحقيقي لا يحيا خداع «البارانويا» طويلاً، ولّى الوهم كضبابٍ صبحٍ هادئ ويده تمسح عن وجهي بماء عذب دافئ، ثم يجلسني بعناية على الأريكة السوداء المجاورة للنافذة الكبيرة، أرتدي فستانًا أبيضَ لا أعرفه... صدره من الدانتيل الملكي وأسفله مصمم على الأقل من عشرات الأمتار من القماش المصفوف بتموجات صغيرة متراصة كأحجار معبد «أثيني» قديم... أشرب من يده قهوة ثقيلة

الملمس، تشبه القهوة التركية لكنها مختلفة... لا أذكر متى تذوّقتُها لكنني لم أستشعرها بكل هذه الجزالة من قبل... كأنها بُن «الالينيكوس»، يظهر لي جَهْبَلَ وجه العم «لارتاوتاس» بذقنه الأبيض الطويل المبعثر وصوته البح الذي كان ينشد به كل صباح للزبائن أغنية «تامبا تومبا»...

تخيفني الآن صافيتا حين تتحدث عن التامباتومبا وأبدأ في التفكير الجاد بأن ما يحدث معها شيء خارق للعلم وللبارانويا... تتجسد الآن أمامي كعرّافة تستحضر الأرواح المفصولة بالمسافات والأزمنة، وأذكر كيف بكيتُ حين عدتُ إلى «باريس» شهورًا بعدها لأجد ذلك المقهى اليوناني قتيلاً برائحة الموت، مَسيجًا بالأشرطة الجنائية والشمع الأحمر، بعدما استهدفه حريق مفتعل وغيّب عن حيّ «الفوجيرار»، تلك التجاعيد الضاحكة التي كانت حويزاءً للفرح، كان صاحبه ذلك العجوز اليوناني خذافةً من الجمال المنهك!

أعود لطاولتي المقابلة مندهشة حين تمرر أصابعها على شفاهها كلما تعثرتْ من قبضتهما بعض الجمل من ورق المذكرات..

نصف قطرة قهوة تلطخ فستاني الأبيض، يبتسم لي كرغبة نار مشتعلة تعيد لي مجد التحمّل المضني، ينبض وجهه كموعدٍ حميمٍ بحياة زاخرة... وكأنه يعمّد وجعي بالانتصارات

الكبيرة فهنالك قبلات صباحية تعادل خذيعة عملاقة تتداعى إليها أقحاف عشرات الجوْعى في موسمٍ صَعْفَقٍ...

نتهي من قهوتنا فينهض بي ويضمني بقوة تطرد عني كل تعاويذ التعب، وكأنه يراقصني على صدره القَثوم، وأحب هذه الثورة التي تحملني بعد إلى ذكريات «ألفاما»، ذلك الحي الذي منذ أن ولدَ في رحمه «الفادو» ظل عرسًا للشجن وما كان للشجن قبل هذا من أفراح... وعلّم «الفادو» للسامعين كيف تُطلقُ فنائق الأرواح في رثاءات زمنها الأغتم ثم ترقص مع العدائد اللابثة في حلمها بالحب الذي تخلّتْ عنه طبائعُ هذه الأرض، منذ أن أقامت القلوب حديثًا في عصاعيص الشهوة وأفسدها البذخ... أطلقُ أنا و«يورغوس» من «كوكينيا» زمنًا آخر، ونعلن بالتحام صدريْنا الآن ولادة عهد جديد ونكون كحشرجٍ صغير في جبل، يصفو على كفينا ماءُ الوله وندفع عمرًا كاملاً لوهلة حياة حقيقية نقاتل بها حُشَارَةَ من وصلوا بنا إلى هذا الهروب الأرعن الجميل...

يقترب مني ويقول لي للمرة الثانية: «مو... يورغوس...»، ثم يهديني شفتيه برغبة جامحة مثيرة للإشفاق، يحتضنني فنلتقي كخياشيم جبال كبيرة فيُزَفُّ هذا القلبُ إليه بخيْتام غفرانه لماضيه الشرقيّ الأكفح... يشترك ثغره وهذا الكفاس

الذي يلبسني في رائحة واحدة لم تعْلَقْ يومًا بذاكرتي، فأهديه بذاكرة واعية عاقلة كَفَاف الشفة ويذهب بي إلى مزاحف بعيدة تزاحكُ عني الشجن وترفعني كنجمة وضاءة... ألوذ بالنسيان، بالسعادة القصوى.

صالون الفيلا، كينج مريوط. الإسكندرية 2019

لا أروم غير هذه الغفوة، كحفيفُ سنديانةٍ في عزلة فاخرة، أفضّلها الآن عن كل ما يمكن أن يُذكر باسم الحياة، هذه الظلال الوارفة التي تنساب من بين تلك البيوت المبعثرة تجعلني أتساءل عمّا إذا كانت هذه الشطآن الندية تعرف بنا، عمّا إذا كان صوت سكينتنا يعلو على ضجيج المقاهي والمخابز والمطاحن التي تحيا على هذه الأرض بشقاء لا يعرف للعدالة طريقًا... تقاطع رزقة، مدبرة المنزل الجديدة صوت أفكاري وهي تطلب مفتاح القبو حتى تنظفه، أرفع عيناي فأرى على ملامحها تساؤلات كثيرة وأنا على يقين الآن أنها أصبحت على علم بوجود شخص ما هنالك..!

أنصرف من أمام رزقة دون أن أجيب ودون أن أسألها عن أخبار الكفر الصغير، حيث عادت للتو من زيارة عائلية قصيرة المدى... تراني رزقة متغيرة بالفعل فتحترم عدم رغبتي بالكلام وتنصرف كلّ منا عن الأخرى..

أجلس على مكتبي وأمامي ورقة مكتوبة بخط صافيتا:

- ما أصلب الذاكرة التي تدفن الأحياء -

أحاول أن أترك لها مساحة أكبر وأكتفي هذه الليلة بالنظر إلى مساحة القبو الصغير من خلال اللاب توب الموجود أمامي بكاميرا التسجيل...

سننعم حين يغرس الحب أقدامه بعيدًا عن أمجاد البشر الذين يسعون وراءها لاهثين، وهي مجرد سراب فانٍ على تضاريس ترابية لا وجه دائم لها... سننعم حين نحدّق في هذا الكون الأعثر بصلابة تلد من خاصرتها البائسة، أقدارًا لا تمنع القبلات وتدس في جسدها المقتول أحزانها وتنسى وقتما تشاء وتنسل منها الوجوه الوئيدة - دونما ندم -...

أسترجع أشلاء قلبي المحزون وأستفيق واعية تمامًا على غير عادة..

«الفادو»... أجدني وحيدة في بيت «يورغوس»، وأذكر اسمه وأذكر ما حدث معي في الليالي الفائتة... أمشي خطوات نحو الباب الخارجي للشقة وأجده مغلقًا غير موصود بأية مفاتيح مانعة... أتساءل عن سر هذا الجبروت التي يقيم في جوانحه، تركني كمغناجة، كقيتارة محجوزة، كلوحة لا يمكنها الرحيل عنه، بكل ثقة أقرأ طبائعه وكأنني أطالع قصة معدومٍ مات بداء الحلم... أقبّل جبين «كوكينيا» عنه وتضحكني

أعيادي الثلاثين المتهاوية التي تضرم نارًا شديدة تجيشُ في ذلك الصقع البعيد الآتي... أمشي بين الأشياء الواقعة أرضًا حتى أصل إلى حقيبة يدي الصغيرة بلون الأحمر البوردو، أفتحها بإرادة الساحر الملعون، تؤجج في خاطري الشكوك إلى أن أهتدي الى علبة دوائي الكبيرة الخاوية وبعدها أبتسم لصحوتي بعد نفاد السموم الكيميائية، لا بد أن أحدهم كان يعطيني جرعاتي بانتظام، لكن كيف تصعبُ على ذاتي العودة إلى ما قبل «البارانويا»...؟؟ ذلك كان الوجه الجميل المرجو من كل تلك المهلوسات التي كنتُ أتعرض لها بصفة شحارير في حزن الخريف، كانت تجلبُ لي الدهشة الباردة وتصّعرُ خدي لهجمة حريّةٍ شاديةٍ مهداة على طبق فخم من الدمع والوحدة... لو يعرف العقلاء والأطباء كيف أن «البارانويا» ليست بشعة بحجم بشاعة عالمهم، ليست خطيرة بقدر ما تحمل صدورهم من ذئاب برّية عاوية، لو يعرفون كم أنّ «البارانويا» حقيقية كَفاف وجوههم الكاذبة المتصنعة... لو يعرفون لحجزوا مكانًا لهم على أرضية هذه الغرفة... هنا أين أجلس وأرى اللوحة المقابلة التي تحمل طيات جسدي بكل تفاصيله الشقراء ومَثَالِجِه... شعّ البرق دون إشفاق...

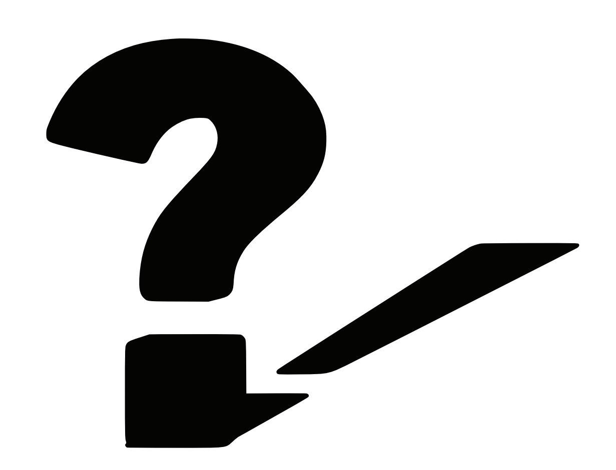
عاد «يورغوس» كشجن قادم من مآسي القلق، كلّمني بصوت حلو السمات، كحلمٍ قديم يزمجر عودته في هذه

الدياجي، توالى على يدي بلذة ملهفة وقاتل صمتي بلغة لم أكن أفهمها، أنظر إليه فقط... أحاول أن أشعر بقدرةٍ لا تبوح بمعازف ناطقة... يصمت ثم يبتسم لي وكأنه أدرك أنني كنتُ ألهو فقط بضجر النقاهة في صوالين بيته دون أن أفقد عقلي المعذّب بعد...

بأحاديث ثنائية كريح ترقبُ غابات أرزٍ كثيفة الهجران، أستمع لصوته دون أن أنطق... فسلاسل الصمت وأنا أطالع مَهْيَصَ عينيه أفضل ما أنجبتْ «كوكينيا» منذ خلقتْ إلى أنْ ماتت هنا بين أخناب النسيان، ثم أرسو بين ذراعيه كحسناء نكرة في حضرة «أبولو»... كماءٍ بَجَسَ للتو إلى عمر جديد، يضم سكينتي إلى صدره... يثيرني «يورغوس» وأسأل عن روحه الغريبة، أيّة أجساد حَوَتْهَا من قبل كي تحمل كل هذا الجمال دون أن نتواصل بهوية واحدة أو دين واحد أو لغة مشتركة... يضع مفرشنا أرضًا وكانهُ يُبايع مجلسي مزهريةً لِلَيْلِه... يطفئ نور الغرفة ويطلق عنان سيمفونية يونانية عتيقة في هذا الفضاء... نَحبقُ أحزان العاشقين في هذا الكوكب ونحن نصرّ على سلك حَبَاتِرَ الدروب إلى الفرح اللذيذ... فليستْ كل الأفراح ذات طعم... نصف السعادة البشرية هرياع زائف، مهرب من كرائب متوحشة...

يوقع طعم «الأوزو» هذا الليل بنكهة سمكٍ إسكندراني طازج، كانت أطراف أصابعه الخصبة تطعمني ما يكفيني من الوله في زمنٍ سَمْلَق... أشعر بدوار مريح كشلاشل بَحْرِيَة هائمة... يغريني ذلك القميص السمانجوني ويرفع ألوان هذه الأمسية إلى غيبوبة قنبية مجانية المطلب، ويثبت لي مرة أخرى أنّ كل ما يحدث خارجًا مجرد تهريج مصفوف ومحّزب...

يقبّل جبيني الأشج بالذكرى ويمسح عن شفاهي مرارتها كَبُغَاشَةٍ حلوة المذاق... تزأزأ الصمت بأنفاسنا وأصبحنا كأمنيةٍ أبّية شديدة الشكيمة ... وضع نضائض الأطباق وقارورة «الأوزو» الشفافة عن فوضى مجلسنا جانبًا واِلتهى بنفسه يُحضّرها لموعدٍ انتهينا للتو من صتيت ديباجته.



الأشياء القديمة...

أجمل الأشياء هي تلك التي تعيد إلى دواخلنا مجد الأنا الغابر دون أن تصدأ، هي تلك التي نتعطش لها و نشعر لو أننا فقدناها بذلك الإقدام الكبير على حلمٍ كسول يسمى الآن لعبيد الزمن «حياتهم»، أجمل الأشياء هي التي تعطينا القدرة على رؤية رفاقٍ بعيدين في ظلمة وطنٍ يرتدي شالاً أسود منذ أكثر من نصف قرنٍ من الزمن... أجمل الأشياء هي تلك الحدود التي تقطرت هاربة من دهاق خائن للمنطق، أصبحت «صافيتا» كالبرق تقوى على الخروج بعيدًا من هذه المتاهة وتشهر سلاحها في وجه جسدها المقتول إلى أن استفاق وطوى الفصل الأخير من أنشودة «موت الغريبة» التي تشبهنا معًا... بدأتها منذ أن اعترفتُ مثلها عند أقدام «طاحونة اللوبرييه» المَيْكَع التي تحمل شهادة وفاةٍ عمرها بعمر ثورة الجزائر، وأخبرتها بأنني ذلك المَيْثَبُ الصغير القريب الذي اختار موتًا يشبهها، يشبه الأرواح التي تسكنها والتي تخيف قاطني المدينة الصغيرة مع أنها تستقطب لهم سيّاحا بالمئات في كل موسم، دون أن تشعر بالملل من لعناتهم، فررت حينما فقدتُ القدرة على أن أبوح بحبّ كان عظيمًا وبكل عدالة تتناصفه الآن في قلبي «أماليا

رودريغس» مع شيء من الحنين إلى وهران...

بارتخاء وهدوء أجلس خلف وجهه الجميل، يضع يده على كتفي كطارّة تطريز محترفة الحسّ وتُسعده رؤياي كطفل معذب يعزف للمرة الأولى على بيانو المساء... في هذه الحجرة تتحرك الحياة ببطء وكأننا حرّاس لأبواب دروبٍ نائية.. كم أعشق هذا الفراغ القائم من حولنا، يساوي آلاف الضجات اللَكَالِك التي تفيض كذبًا وصراخًا وعبودية، عبودية الواجبات والفرائض والإملاءات الجخيفة التي تخط مصير ملايين الجنائب من مواليد شرقنا الحزين... هذا الشرق الذي هو أحدث جُنْدُبٍ ستنجبهُ العولمة...

أرتدي فستانًا جديدًا من حقيبة «يورغوس» وتبهرني سعادتي لعدم فهمي لأي شيء... يبهرني أنني الآن أراقصه كصديق حقيقي قديم ولا لغة تجمعنا... يتحدث باليونانية بعض الكلمات وأنا لا أتقن من هذه اللغة غير فتات بعض المياجيز والحكايا التي تَركَتْهَا في أعماقي بعض الكتب... يبهرني أنْ أستحضر أمام عينيه شيئًا من مياثيق إيماني الأولى وأنا أكاد أن أكون من آخر أفراد العائلات اليونانية التي تغادر مصر في هذه الفترة، لا أجيد الحديث باليونانية بقدر ما أجيد هذه اللغة الساحرة التي تشربتها من ثغر عرابتي نينات عدلي فؤاد وهي تقول :

«لن أساوي يومًا أكثر مما قرأتُ...»

وها أنا اليوم أبحثُ عن فرحٍ يساوي بعض ما قرأتُ من أدب الإغريق القديم وهو يمسك يدي بعيدًا عن أيام المِحَن الشديدة ونُخاصِر الفرح برقصتنا، أسائل وجهه هل ما يزال قرير الحياة ذلك الذي وضع «كوكينيا» كوردة منسية في كتاب...؟ وهل أعدّ لنا موعدنا المجهول في هذه الزاوية...؟ وهل يدرك نهايتنا منذ أن كنّا نتبارى مع كل أصناف القلق، منذ أن لاحتْ أمامنا أشباحُ أملٍ عابرة وسَندْنَاها كلّ صباحٍ بفكر الثبات...

نرقص ونرقص إلى أن تُغيّر ساعات الوداع القديمة مواقيتها بين الطلّل، نرقص كي لا نكبر مهما اقترفنا من القرارات القاسية، نرقص كي لا يأتي دورنا أبدًا وتظل تظلّلُنَا آمادُ أرضنا مهما حَيَيْنَا بين أقربائنا غرباءً... نرقص كي نبلغ القمة بهذا المحيط القاحل ونسمو على كل ما اعتقدناه يومًا أسمى من الحياة نفسها...

'' الحب ميلاد جديد...''

تتحدث رائحة جسده بابتهالات خاشعة وأنصتُ له كالموج، ويصبح عقلي طليقًا كعجوز يرمي عكازه فيخترق الزمن على الأقل بثلاثة عقود منتهية... أشعر بأنني أسوق الأرض كإعصار مُرعب وأنا التي فضّلتُ العمى على أن أنظر

للأشياء من وراء شبابيك القيد ثم أقفل الباب وأشد سلاسل الأبدية كي أخرج من جموع الفاقدين إلى صدره... هي رحلتي الأولى نحو الحرية القصوى التي لا تصلها المآسي وتُقسم لي «كوكينيا» بالصلوات وبالنذور:

" الحب وحده وطن... كل ما قبله وما بعده مجرد اغتراب ".

أسمع في هذا السرى دقات أقدام صافيتا على الأرضية الخشبية الدافئة، ثم تسكت الألحان لوهلة، وتغيّر إيقاعها إلى نبرةٍ تجعلنا نسأل ذلك الشارع القديم عن المسير، لا يمكن لغصّات الحناجر أن تعيق نبرة البسمة على هذا الممشى الجهْوّريّ الطليق... «الفادو» ليس أجنبيًا حين نتذوقه بعاطفة الإنسان فهو يحمل كل الأوطان بوجه «ألفاما» ويحمل كل اللغات بحرف «أيبيريا» ويحمل كل النساء بصوت «أماليا رودريغس وآنا مورا وماريا سيفيرا أونوفريانا...»

Dans une maison sur le port ''

،Pourtant je suis revenu une nuit

،J'avais cru qu'on y chantait comme avant

Mais les couples qui dansaient

'' N'étaient plus rien à présent

أتفاجأ بيورغوس وهو يراقصني ويدندن هذه الأغنية، ويتكلم اللغة الفرنسية بطلاقة... لم أفتح معه الحديث منذ التقينا... كنتُ أفضّل الإصغاء... هل يعتقد «يورغوس» أنني خرساء...؟؟... لكن ما الذي يجعل رجلاً مثله يتواجد معي في متاهة كهذه... ما السرّ وراء وجوده هنا، فأمام كلّ الأجساد النسائية الجميلة التي تزدحم بها شواطئ «الكورفو» و«السانتوريني» في بلاده الزمّردية... أنا مجرّد قروية أفقدتها نوبة بارانويا طويلة النفس صوابها وهي في «كوكينيا» ثم وجـدَتْ نفسها في منزل قديم مهجور لا تفاصيل لوجهه، ووجدتْ رجلاً وسيمًا يهتم بها ويخبؤها عن ألسنة الجيران ونظرات المارّين في حيّ شعبيّ أحمر الملامح... ما الذي أتى بيورغوس إلى هنا...؟؟ وكيف يُلمّ بكل تفاصيل هذه المدينة كإسكندراني متأصّل، وكيف يملك كل هذه الشجاعة في أن يحط يده بانتظام في حقيبة يدي الصغيرة كي يعطيني أدويتي بانتظام... ولكن هل يعرفُ حقيقتي؟؟ هل يعرف كيف انتهى مفعولها وكيف عُدتُ إلى نفسي... وكيف رافقني في كل هذه المساءات دون أن يمّل...وكيف راهن أنني سأحبّ قهوته ورائحته ورقصة «الفادو» الطويلة... نعم.. أنا أفكر... لكننا ما زلنا نرقص وأخاف أن تكشفني عيناه... يطالعني الآن وهو يبتسم ولا تقف رِجلاه عن رسم لوحة مرقصنا الصغير...

أنظر إليه وأجعل صوت روحي «اللا واعية» منخفضًا شيئًا فشيئًا... ومع ذلك أدركُ أنه سوف يكشفني... يخيفني إصراره ومأخوذٌ هذا الفؤاد بعزيمته من أجلي... كأنني قضية يؤمن بها... عيون صافيتا الآن غائرة ومحتالة كبلاد ممزقة ما زلتُ أحملها واعتدتُ أن الإيمان فيها بالأشياء الجميلة هو تمامًا كالذي يعبث بقنبلة... الإيمان بالأشياء الجميلة في بلادي القديمة يضع رأسكَ تحت المقصلة ويجعلكَ في حربٍ مع العياثيم... ويجعلكَ بطلاً تسمى باسمه مجموعةٌ من القضبان ووجهَ عُملةِ تنكيلٍ شهيرة تُصرَفُ في الفصول الموسمية للتدّين والتسيس... ليتني أنا التي تحاور يورغوس.. كل أنثى في شرقنا يا «يورغوس» طفلة تكتب بمزاج امرأة وامرأة تكتب بمزاج أمة... «هل تسمعني...؟»

أُسائِله بصوت منعدم فتحدّق صافيتا في قلبي ككنارٍ يغّرد في بؤبؤ صدقٍ معتوقٍ في صدرِ ساعةٍ مرحة... وأشعر بها كقصيدة وُجدتْ مكتوبةً على حائط سجن قديم في خرافة جهواء، قبل مائة ليلة من الآن...

جميع الأحكام في هذه الحياة تدعونا إلى يقين جديد ونُفني العمر غالبًا في البحث عنه... لكننا لم نسأل أنفسنا يومًا عمّا «فوق الذات»، عمّا «بعد اليقين»، هل يمكن لأحد أن يدعونا إلى جلسة لا نبحث بعدها عن أي يقين في هذا الوجود... جلسةٌ

تُشعِرنا بأن اليقين الحقيقي هو أن تملك ذاتك وتخسر كلّ شيء وأن الفرح الحقيقي لا يسكن الأصقاع البعيدة ولا يستدعي أن ننتقل من الحياة إلى الموت حتى نظفر بنوره... هو ذلك الملجأ الأكبر الذي لا تدنو منه لحظات الوداع مهما عَظُمَ الشجن الجحاف ومهما أغرقتنا سفائر الدموع وسموم الألسنة...

أنا الآن في ملجئي... يدرعني صدره كأميرة رومانية تحيا رهن الأيام السعيدة لا رهن الحصون... فلماذا يا ترى أُصرُّ على البحث عن حقائق طالما رأيتها تافهة وصغيرة... المجد بالنسبة لي هو «الآن»، لأن الزمن القادم غير موثوق... لكن الأرواح ترغب أن تجرّبَ دائمًا حلكة العذاب المشتهّى... أسأل نفسي من جديد:

«ترى من صاحبة هذه الفساتين وتيجان القماش التي أرتدي وأنا في حضرة هذه السكينة المقّدسة كريتاجة معبد قديم...؟؟» ... ثم نعتلي معًا جوقة هذه الغرفة متلاحِميْن ككواثب تحتفي بصبرها على عطشٍ قديم...

المجد للسكينة... المجد للمحبة... المجد للأشياء القديمة... للأرواح القديمة... هي الوحيدة التي ما زالت تشهد أننا كنّا بشرًا على قيد الشعور... توجعنا الوحدة والمسافة والذكرى والموت والرحيل والخيانات.

أقول في نفسي: «سأحيا منذ الآن – باختياري – في ذمة الصمت»... أتلذذُ بالفرح وأزدري صوتي الذي خذلني طوال ثلاثين سنة ولم أجنِ من إعماله سوى تيه الهائفة الجريحة...

أُهَوْجِلُ في صدره لأقل من غفوة خفيفة فيوقظني وهو يقول:

- «ايماستيي افزونس ايي تسوليازس».

أنظر إلى عينيه عن قرب وأنا التي قرّرتْ ألا تجيب وأنْ تُمجّدَ صمتها... أبتسمُ لأباجير وجهه المضيء وأنا أرى كيف نحن نتقاسم حقيقة مع المحاربين الإغريق القدامى عزيمة البقاء والانتصار لكي يحيا الحب فينا مهما كان هذا الدهر خائنًا وباردًا..

لن أخون عهد هذا الوجه الكئيب، وجه «يورغوس» ووجه «كوكينيا» فلتذهب كل معتقدات الأرض أباديدَ بلا رجعة... هنا أجد معقلي من حرب وجودية خاطفة... كل شيء كان فيها مؤقتًا... لا يصلح منطقها سوى أن يكون خُواعة لأرواح تغسل أعماقها بشكل مستمر حتى لا تتسخ.

هل صافيتا هي كاتبة هذا الورق أم أنها عثرت حقيقة على ورق مذكرات قديم من مكتبة رحالة... وكيف يشبهني ورقها

أيضًا إلى هذه الدرجة المخيفة.. أراها تحب الليل بقدر ما تخجل من مرآة مرضها وهي عاجزة وزاحفة وضعيفة، تلتهب بعض أجزاء جلدها كوشم بربري قديم، يجعلني أستحضر أنني حفيدة «الكاهنة»... وأستحضر قلعة «السانتا كروز» التي تعتلي «وهران» ولا ترضخ لتقاسيم الزمن مهما تقابضتْ السياسات المتعاقبة على وجه الوطن... وتجعلني أخجلُ من الهزيمة ومن نفسي كيف بايعتُ صافيتا في هذه العزلة التي يمكن أن تصل بي وبها إلى الخراب أو الموت، قناعتي لم تتغيّر يومًا أنني امرأة تحمل أبوابًا كثيرة ولا تسمح لأحد بدخولها دون استئذان... لكنني أمام صافيتا أحتمي كوهران خلف «باب السانتون» من وجهها... وأواجه بمشرط الجَلَدِ صعائب الظروف معها كي أبلى كبنايات «الميرامار» لكن أظل صامدة كي أجدد جسدها كما فعل «ايميل كايلا» بأسوار «وهران» القديمة...

أرى أحلامها الخامدة ولم تكن الأحلام يومًا سببًا كافيًا لإتيان الفرح من فوق هاوية، لم تكن الأحلام يومًا لتنقاد بسهولة خلف أهواء الشراع السائرة، لم تكن الموانئ القديمة يومًا أرصفةَ للقاءات فقط بل كانت أيضًا أرصفة للوداع... لم تكن يومًا العيون المغلقة أوطانًا للنشائص

فحسب بل كانت ورقًا يشرب من غيظ الحياة حتى يكتفي وقُبَيْلَ أن أصل إلى هنا، إلى هذا الفؤاد الطفل التي تحمله صافيتا كُنتُ أفكر كثيرًا دون أنْ أَصِلَ إلى خطّ أرجوانٍ يذّبُ حياض البكاء.

شقة تهاني برجلجوت. شارع لاجيتيه. كوكينيا 1980

في طور الخيانات، لا بد للنسيان الهِبْرِزِّي أن يحيا كلما حلّ صَدْعٌ ما بثقوب المرايا التي تسكن الوجدان، وتعكسنا في وجهها كيفما شاحت الحياة عن آمالنا كبانةٍ طويلة تغدو ظلالها خلف هذا الفصل دون رجعة... لا بد أن تجضّ القسوة في صدري على عُباب الشجن، على أولّ الشجن لأنها إن بلغتْ آخره سوف أنتهي إلى هذا الفصام أبدًا، لا بد أن تُعلِّمني الحياة كيف أُهشِّلُ منها دقائق الفرح قبل أن يَهْتَشِلني الضياع والنسيان والغرق... لا بد أن نكون سُرّاقًا ماهرين حين يتعلق الأمر بِعُمر الفرح القصير ونجعلُ من كل صباحاتنا طوابين حقيقية لا تهدأ... وأن نرفض الكمائم مهما كانت صغيرة لأنها قاتلة، وأنْ نمُدَّ بالهروب وبالتمرّد وبالجنون أصابعنا إلى الأمل مهما كانت كزماء وخائفة...

" إِن القلوب التي لا تؤمن بعَمَارِط أمنياتها الفقيرة لن تصل يومًا إلى أحلامها العظيمة... ".

كغشاوة ظلٍّ نَهَف في دوحتها زُنبُرٌ حالم... يرسمُ على دفتر شفاهي وَعْدَنا الصباحيّ ونرددّ معًا وتردد معنا «كوكينيا» زِنَاجَ

العشق ونجدد بقاءنا ونُخَاتِلُ الأيام السريعة في هذا العصر السريع... يلتهمني كضفيزة تُعمِّدُ عقائف المجهول القادم إلينا...

ومن ثمة يضحى هذا البيت «في كل مكان»... لن يضيق جوهر الدهر بأسمائنا ولا بأسماء العاشقين الذين سوف يولدون ويقرأون حديثًا عن «مدينة عربية» حوّلتْ بين هذه الأوطان المرعبّة زِنْتَرَة ِموتٍ بطيء إلى مسرح حياة حقيقية، يَلمُّ بشفاهه مرة أخرى الفتوق القديمة التي أحملها على وجهي ولم تمنعني يومًا من أن أظل باسمة... لعبة المحبّة في هذا العصر القذر تجعل من القلوب مجرّد كجَّةٍ تتقامر بها المصالح والمظاهر واللـذّات والقوانين الاجتماعية والجنسيات والضغابيس والعقائد دون أن تقذفها إلى قاعٍ رحيم... هذا البيت الذي شُيِّدَ لأجلنا بمشاعر حيّة، قبل ألف سنة على الأقل، يبني بِإسمنا الأصم «إنسانًا حقيقيًا» منذ اجتمعنا كطحالب بحريّة جرَفها القَعِيثُ دون أن يكبحَ فراقها عن الانتظار في هذا العالم الواسع...

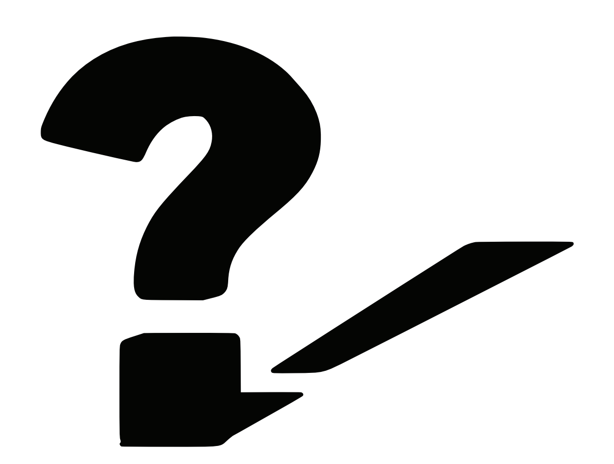
كالإمليص يعود بأنفاسه ليقتسم مع عنقي قلائد مجد المحبّين، ونحن ورثتهم على أرض هذه المدينة منذ أن كان بحرها نائيًا إلى أن خُلِقَتْ «كوكينيا»، ثم نُسِيَتْ ثم ارتدتْ هذا الحائك الشعْبيّ الغريب الذي لا يشبهها في شيء.

ما أجمل صافيتا وما أعمقها، وهي أول عاشقة تهَطلَسَتْ من فصامها بفضل الجنون... وكُتِبَتْ لها نهاية غير الموت بعد «سلمى كرامة»... شحّ نور الشمس وأنا جالسة على هذه الأرضية... وروح صافيتا تعدو على هذا السرير عن كثبٍ كأمنية صعبة المنال، حلوة الطعم، كنافورةٍ مَرمَرية تشعر بعطاءِ جسدها السابح بين أكاليل زهرية جميلة... وظللتُ قبل هذا مهدورة الحقّ في الفرح ومع ذلك قُتِلْتُ... لذلك تحاول أن تنفذّ الآن – بنقمة عمياء – كل ما لم يَشَأْهُ قدرها من قبل دون ثرثرة باهتة... وكأنها حِمَالَةُ سيفٍ ينئ بتاريخه عن الخرائب التي وُجِدَ لأجلها... كنتُ دومًا أشاهد رقصات الخرائع بدهشة، لكن ما من واحدة منهن تمايلتْ بكل هذه الليونة وحاولت جادة أن تمتهنّ لغة الجسد لوحدها منذ ولادة هذه الأرض – دون ميسرة – لتقتات روحها رغيف يوم ذليل...

الآن فقط يُعّلمني «يورغوس» في حضرة هذا الوخز الخفيّ لآليات الفرح بداخلي أن الحياة ومهما ظلتْ مليئة بالهازئين، تبقى لغةُ الجسد الحوارَ الوحيدَ الذي يقيم فوق الأحلام الكاذبة، فوق الأحزان الدفينة... هي الجُرمُ النظور الذي يَحيكُ لعدالة العيش جرعات متساوية تغسل دماء الحزانى وتذوب دون أن تنجلي بألمٍ مستحَق يسميه العاشقون «فراقًا» وهو مجرد خيار ضيّق يضمن لهم مهربًا في عواصف الصخب المزيّف.

أمسيةٌ بِلَوْنِ السوسن... تحيا فينا هذه الروعة المقدسة الغامضة، أنام بعتمة نديّة بين ذراعيه والسكينة ثالث شواهدنا... أهتزُ وكأنني فوق سهلٍ أزرق... وجهي كسِمَةٍ بهيّة في نوادر سائرة... أسأل نفسي: «هل سيطول هذا الحلم أعوامًا...؟؟»... سأهدي هذا الزمن طموح الأرض ودماليك العجائب، فالخريطة تنتهي هنا ما دام الرفيق يقاسمني أنسام الربيع في هذه الغرفة الصغيرة... ما دام هذا الدرب الصحيح يرشدنا كي نهتدي إلى براري كانت تبدو لنا في البداية بعيدة... ما دمنا ننجو معًا من الأوحال الطامية ونحيا المرام في هذا المنفى الجميل.

* * *



للمرّة المائة...

يرغو بحر الإبراهيمية ويعفّر طريق الكورنيش إلى حافة الرصيف الآخر، ولا يظهر لنا شيء في هذا الظلام من ضابطة الأفق، تجلس صافيتا بجانبي في السيارة وتنتشل وجهها مني صوب الجانب الآخر كخاتم مفقود وتضعني على ظهر هذه الرّيح ونتأرجح معًا على حكايات «راكتوس» القديمة... وجهها معبأ بالوسامة وبالندوب الصغيرة، وكثافة شعرها أصبحت أقل فأقل مما كانت عليه، تغمض عينيها وهي تتألم من وجع أعلى جانبها الأيمن... تشد بيدها على خصرها وتنظر إلى الأسفل وكأنها تبصرُ الأمس في مُقلتيها، تهدأ بعد دقائق بالقرب منيّ ونجلس معًا بالقرب من سرّنا المشترك ولا نحاكي فيه شيئًا.

يحتضن جسدي كأمنية في ساعة الموت الأخيرة، ينظر إلى الصمت الذي أَنسُجه حولنا كرُتّيْلى عادت إلى ميناء «الإفرنج» صباح هذا اليوم باحثة عن صيْدٍ قديم تقاسمته الأحجار والزلازل والطيور بتعداد الأصابع... أحتسي شفةً بنوتة جديدة، قبلة شرعية صحيحة المخالب، ترى في

الذات نقائص حرمانها الكخيخ... أشعر بالبرد وأنا أقذف عمري احتياطًا تحت شجرهِ وأتسلّى بقتل هذا الصقيع الذي يسكنني ويأبى الخروج منذ زمنٍ...

ليتَ سكوني ينطق في غُبْجَةٍ جريئة وأسأله لماذا أتى إلى الإسكندرية .. لا أقوى على الحديث فقط يصدر مني صوت يشبه بداية مقطوعة من التارنتيلا.

يستدير نحو عُنقه ببطء، ثم يعاود النظر إلى جُلاشِ عنقي ويُطالعني «ناطقةً» للمرّة الأولى...

"إنّ الأنثى حين تقترنُ بصوتها تختلفُ كثيرًا "...

وبعدها يبتسم لي ولا يجيب... ربما يريد أن يسمعني افتاخًا كي أعيد سؤالي للمرة الثانية جهرًا... للمرة المائة بعيدًا عن «نورت بيكورت» أقررُ أن يعترفَ لي كما أشتهي وأن يدور في فلكي هذا المساء بعزيمة الكيْد التي تخطرُ بها النسوة ـ منذ الأزل ـ كذَنَبِ لباسٍ ملكي طويل...

كلما ابتسم يُظهر لي الحياة بكل أهوالها كطعامٍ عذوفٍ تساقط من وليمتنا العظيمة المقدّسة التي جمعتْ آلهة «البرناسوس» للمرة الأولى في حضرة «قيتباي» وأخلطتْ حسابات عرائس «الكراغيوزس» الصغيرة المعلّقة على الحائط المقابل والتي نهض «يورغوس» نحوها قُزوعًا...

ترك مجلسنا الزُّرْدَاق فارغًا من عينيه وأراد لي تناتيش الوله ألحانًا واستبقني إلى مواطن الحيرة الجدباء الغَذيمة... أراجع كلماتي وأحاول أن أجد لهذا المهرب ليلاً يكون له بمنزلة المنفى المعتدل، لكنّني لا أجد في هذا القَبْس الطويل غير عدوى الشوق الممتنع عن نعاس مضجعنا الملتهب.

يعود صوب جلسته الأولى وهو يبتسم ويقترب منّي فتقفز من صدري لُدُونتي الغُلامية إلى كفيّه وتجالسهما وتفوتني إلى عَلَانِدِي الرخوة المزيّفة...

هل أحاول أن أحتمي من يورغوس...؟

لا بد أنّني غير واعية بعد، أُخبخبُ في متاهة البحث عن «الأنا»، فهل يُمكنُ لكلّ تلك الملذَات أن تجيد وجع الاختفاء!

أتذكرُ في كل هذا الجحود كيف نَزَعَ الروح وسار إلى لُقيانا بلا أقنعة وسار العمرُ خلفه بلا مقاومة وسار الليل إلى فرحٍ قَمِينٍ بثبات مفصول الإيقاع عن دنيا البشر العاديين... يا إلهي... كيف للنساء أن يَكُنّ خائنات، غانيات كلمّا وُضِعْنَ تحت المكابس، ألوم نفسي ولم أكُنْ يومًا من الكَعابِر منذ وُلِدتُ... وما آثار نضوجي من قرقعةَ مهما ترصدتُ الحقائق، ولم أكنْ يومًا جدعاء المطلب. فما الذي يحدث لي الآن... أشعر بأننا نتبادل أطراف الخيوط حتى آخر اللهب ونرقص ضد الخوف

وللمرة المائة نحاول أن نهتدي لجدلية عاقلة نُبرّر بها - كالنوآن - لماذا اخترنا هذا الغروب وحملنا كل شيء من حقائب نسياننا غير قواعدنا الوجودية... بدأتْ غُلغُلَتي تتصاعد فيدنو مني يورغوس ليذكرني بملمس يصيبني به كبحرٍ يتدفق في غبٍّ صغير...

لا أريد لهذه الخلوة أن تنتهي... إنّ الأشياء العاقلة تُبعدتنا عن العظمة!

تجلس الحياة أمامنا مجددًا بكل أهوالها كفَيْكَهَانِ تافه...

فبئسَ ما أبصرَ هذا القلبُ قبلكَ...

غنِّ لي يا صافيتا لو للحظةً حتى نبقى، لا بد ألاَ تجيبيني، لا بدّ أن ننسى ما حدث قبل البارانويا، لا بد أن تستقوي على هذا الجسد بالمديح وكم من المُمْقِتِ أن نشدو هنا كَبلبلين أحدهما فرّ من برد أحجار الرُوزَ الْكَزَارْ من وهران والآخر ظل يشدو من «لاريسّا» حتى التقيا في هذه العزلة الجائعة...

يُعلّمكِ هذا الرجل العاشق كيف أنّ أعظمَ الأشياء أكبر من أن ننتقيها... ويعلّمني كيف يمكنُ لعاشقٍ أن يحاكي بصبرٍ كل هذه البَرايا المشردّة بداخلك ويعلّمني - للمرة المائة - أنني صغيرة في حضرة «كوكينيا» القديمة كظبيةٍ تحاول أن تختال على رزيّة شائكة... ويعلمني كيف للرجل العظيم أن يحنو على

امرأةٍ بثناء العظمة لا بمنطق «تكريم الضحيّة» السائد.

أعود لأتُعبهُ فأنا الأنثى التي تُسائل الرّيح الهاربة من منطق صيد جائع... أنظر إليه بعينٍ تُنائي هذا التهديد القائم بيننا وبين المجهول القريب... وتَرَافَيْنا أخيرًا على أن تكون أصابع قدمي محل اكتشافات عظيمة لهذه الليلة... يجمعها «يورغوس» ويتفانى في قبضته ويصلُ بي إلى نشواتٍ غشائية لا يمكنُ امتصاصها حين تتناثر...

– tu as des pieds grecques !

جالستان أمام البحر... أتفحصُّ انحناءات أصابعها وصبري النحيف الذي حملني من «النورت بيكورت» إلى هنا، والذي حملها حسب تأملاتها قبل قرون زمنية من إحدى مدائن بلاده إلى «كوكينيا»، ثم وُلِدَتْ نساءٌ كثيرة باسمها الأصم ثم أتيْتُ ثم زُرِعَتْ أخطاءٌ كثيرة جعلتني أغادر وهران من جديد، وجئتُ آخرًا إلى هذا المجلس معها كي أجني مقصدي... يضحكني إيمان صافيتا ويدهشني وهو يُهادنُ الواقع بالحقائق... فالواقع في هذا الزمن مجرد مكنسة عاطلة يُحصّلُ بها الناس وجوههم الكاذبة واختياراتهم الباردة ومحبّاتهم الضريرة.

وليس هنالكَ من ملائكة تجارينا على مسرح هذه الأرض وأنا أراها تستعّد كي تُسمعني الشدوَ لقرنٍ آخر قادم، دون أن

يكتنفها القلق لحسابات حياتية متوقفة بين مدينتين يفصلهما بحرٌ صغيرٌ وزمن ضيق.

لا ضيْرَ من الآن على هذه المتاهة... لكن لماذا يعتقد يورغوس أننا سنفترق بمجرد ما نهتدي إلى إجابات على تساؤلاتنا... لماذا يعتقد أننا مرتبطان فقط بسرّ كوكينيا... لماذا لا يعرف بعد من أكون بعد مائة ليلة من البوهيميا والتي كنتُ فيها مكشوفة الأوراق... أعجز عن التلفظ في هذه اللحظات الصاخبة وأقف في دهشة - للمرةّ المائة - أمام بارق الأوهام الذي قطّعتُ به أشواط ثلاثين سنةٍ «أنثى» دون أن أسأل الفناجين العابقة بالأحاديث يومًا من أكون...

كل الأشياء زالتْ من عواصف الشباب النضر إلى كؤوس المأساة... أصبحتُ أتناول «الأوزو» ببلاغة تعادل صخب هذه المدينة، وكنتُ أتلظى تحت جُنحِ الشمال المظلم ويشغلني القلق العالق في روحي.

شفَعتْ صافيتا بكلماتها لقلبي الصريع في قاعات الأوبرا، وعند مدخل كنيسة «المونتكي» حين كنتُ أنتظر صديقتي «بيرلا» إلى نهاية القدّاس كل أحد... وصنَعتُ أكاليل سعادة عربية في كل وليمة جمعتني بفتيات المدينة وجعَلتُهنَ يغازلنني ويقصدن بيتي باستمرار للحصول على رشفة بنّ قادم من طاحونة «بادسي» التي تنتج قهوة بطعم

«تلمسان»، وأقنعتُهنَ أنها وصفة حبّ يومية لآلهة الشعر بخلاف الكابوتشينو الذي لا تاريخ لـه... وحمِلْتُ في كل أمسيةٍ وَلَه «وهران» بيقين ثابت في هذا العالم الغارق في الحانات والعَقَابِيل... و ظللتُ دمعةً هازجة تُوقِفُ القرون عند مجد أرضها السابق القديم و ترفض أن يكون الشرق زهرةً مخيفة ذقناء ، و تظل تروي للأصدقاء الغريبين باضْطِرَاعٍ كيف استشهدَ الايمان في روْحِ مصباحِ شرقيّ مضيء، و تتلو عليهم شعر «المعّلقات» وتعدُ لهم أحجار مجلس «زنوبيا» ـ قبل التحريف ـ و انتصارات «شيشناق» و«ديهية» وكيف أنّ بلدة «أخميم» في عشق «تِي و اِمْنَحَتْب» الفرعونية أبهى بكثير من ثنائية «روما و الفالنتاين»!

كل هذا يحضرني فقط كي أستطيع أن أقيم مع صافيتا في حلمها و مع ذلك أعجز.

يطالعني «يورغوس» وهو يتشرّب من ثغري كمنار الشمس في لحظة انكسار عميق... ثم نحيا والسكوت ثالثنا حين لا أقوى أمامه على تنميق هذا الحديث، ولعله مثلي يستحضر وجه مدينته ويتحضّر كي يسير الشجن إلى حَتْفِهِ الأبدي بمجرّد ما تُسلّحُنا الشجاعة ببعض الأعذار الحديدية الجامدة في ظلمة المسافات دهرًا... لن نشتكي من هذا المصير الوليد محض الإرادة... سنقرر العيش في هذا الخفَق ونرددّ أغنيات

يئستْ منها آذانٌ عديمة الذائقة... تنسحب السكينة فجأة من مجلسنا ويحضرنا بعذالة «يانيس كوستيراس» و«أرايس دافاراكيس»:

«اوه... الكساندريوس...

أيتها السماء النقيّة...

في الحبّ أنتِ متينة كالألماس...

وكلّما لاح طيفكِ على صفحات البحر

يا سلام... كم أنتِ فاتنة في الخريف

وفنارٌ عريق في الجنوب.. يا سماء الإسكندرية...»

وتبدأ ليلة أخرى، وقّادة بطعم قراراتنا المفاجئة بألاّ ننكبُّ على التنقيب فيما أوصلنا إلى هنا، ولا أدري هل سأكتفي بأن أكون عِقْدًا وديعًا في هذا السيل العرمرم، ولا أدري إن كنتُ سأوقفُ النزال مع هذه الحكايات الميّتة الهشّة.

كينج مريوط. الإسكندرية 2019

أستيقظ في ظلمة غفوتي كحلُمٍ هارب ساحر الخلجات، كلّ أبعاد السكينة تنتبه لعالمنا الذي تزيّنه الضمائد تحديًا للبقاء ولديمومةٍ تتخبط رهن معارك الكشف وثورات التحريض، التي تسكنني ولا تفارقني منذ أن غادرتني صافيتا وما عادت تستجيب حتى وإن انباشت الأقدار بغية السكينة. وتركت لي ورق كوكينيا القديم المكتوب برائحة سيدة مهزومة وميتة، حتى تتبرأ من جنونها أمامي وبلغتُ هذه الليلة العاشرة وأنا أحلقُ كَقَطامٍ نحو النافذة لعلها تعود، وبمجرد أن أزيح الستار البالي عن زجاجها، تظهر لي بعض أجزاء المدينة المبللة تحت مطرٍ لم ينقطع منذ قدمنا إلى هنا، يؤجج أبواقًا تشغلني بطعم الخوف المُتْرَع وأسير إليها بأثيري سيرًا حثيثًا، كهدف يطيل العمر كلما بلغناه ورأينا خلفنا ساعات نائمة منه ما عادتْ تعنينا.

دقّت الرابعة فجرًا – للمرّة المائة – وأنا أحيا عمر الانتظار الذي يرفص عني كل سِهام الحقائق ويطحنني الجهاد في سبيلها كي أبلغ المُجُود في ينابيعي الجارية... تسقط ربطة

شعري القماشية البيضاء أرضًا وينسدل على كتفي بعضٌ منه، فأنظر إليها وهي ملقاة على هذا الخشب المنسيّ وكأنها تطرح ذاتها محلًا للسؤال... كانت ملكَ إحداهن قبلي... ربما لستُ العروس الأولى لخلوة ضبابية مماثلة... تراها تألّقتْ أمام النسيان كالتُّرس وأبتْ أن ترقى إلى نهاية عادية... ؟ ؟ حتى حَمِلْتُهَا في دالي ذراعيه حين لامسني كرغوة ساحرة... ؟ ؟... أم كانتْ بائسة مسكينة تحسنُ الغرق في الصمت الحزين، حتى آلتْ إلى هذا الدرب الطويل دون أن يخترقها ضوء... !

أسمع صوته...

أحبّيني بقدر ما تعجز القلوب الصغيرة أن تُحِبَّ... أحبّيني كما يعجز الليل أن يهتدي إلى فجره دون انحسار... أحبّيني واجعلي وجهي غير نمطيّ كما «كوستانتينيوس بيترو كفافيس»... أحبّيني وسوف نهتدي معًا إلى الحريّة المثلى التي لم تتحقق يومًا على هذه الأرض، وسوف ننجو في هذا الدرب البعيد روعةً... أحبّيني ولا تكترثي للجماد الذي يحيط بنا ولا تهتمي لأرجاء بلادكِ البعيدة، فنحن بوكالة المحبّة هنا... نرثُ أبعادَ حياة كاملة... أحبّيني ولنسبح معًا دون قياس للضجيج، وارتجفي – للمرّة المائة – مهما اكتظت الهامات في هذا الصالون الكبير، أحبّينيّ كَفاف ما تحْظُرُ الأوطان وجوه الثائرين وكوني «الشيء الوحيد الباقي» كلما تساقطتْ عظام

الأحلام الراقصة، وكوني باستحقاق أليم بطلة هذه اللوحة التي لم تصبحْ معروفة بعد لهذا العالم... واشتعلي في هذا السجن الانفرادي الذي وضعتُه لنا ضربًا من غرور وسخرتُ به من كل أولئك الرجال الذين لا يخجلون من مغازلة حسناءٍ في حضرة خمرٍ رخيص... أحبيني وإياكِ أن ترحلي... إياكِ أن تحاولي الشفاء من البارانويا...

«أحيانًا كثيرة يكونُ العقلُ منطقَ الجبناء»

حين أقرأ ورق كوكينيا، أفهم الآن فقط كيف كانت تسرده صافيتا لي بنفس واحد دون انقطاع، يحدّثني يورغوس بكل هذا التسلسل دون أن يأخذ نفسًا واحدًا ويُظهر لي بعض الدمع وبعض الانفعال ويشدّني بقوة تبهرني وتخيفني وتقاتلُ بي أجزاء حلمٍ مقدسّ يقيم في قلبه – على الأقل – دهرًا... ويفصلني بحجّته القويّة عن منازل الندم التي تقيم في قلبي – على الأقل – منذ وُلِدتُ..

ثم أسأل نفسي لماذا رحلت وهي متعبة ومريضة وأخاف أن تكون على موعد ما مع يورغوس بيقين كبير وأخاف ألا أراها أبدًا منذ ذلك الحين، وأكون ساخطة لا على كيف أسقطتني باقتناع تام في دوامة ألمٍ تسكنها بشيء من السحر، بل أندم كيف كانت لتذهب دون أن نكمل معًا هذا الطريق الشائك مهما كان مصيرنا... وأسأل نفسي كيف ليورغوس أن يكون

مثل «قسطنطين كفافوس»... كيف له أن يرث روح صافيتا من بين كل أحجار الإسكندرية القديمة!

ينظر لي هذا الورق الناطق في ارتخاء وكأنه يدرك أنني لم أنتهِ بعد، أصبحت أخاف أن يناديني هذا الورق باسمي!... ويهرب بعمر صافيتا من الشقاء بهذه السرعة القصوى إلى عقيدة زمنه.

لا نهار لهذه المدينة منذ رحلوا... وتركوا أحلامهم في مهب هذه الظلمة... أيُمكنُ أن نكون ذخيرة لعهد حضاريّ جديد...؟؟... أيُمكنُ للمحبة أن تعرف ثورةً... هنا... بين هذه القرابين الكثيرة في هذا الشرق المرعب

''ما أقسى النورّ للعقول الحالكة''...

يتلفظ يورغوس بكل هذا الزخم، ويجعلني أغوص في صدره بلا رجعة، ويعيق مساري الليليّ المضطرب أكثر... لا أشعر بنفسي سوى وأنا أحمل كأسًا طويلة العنق غنية برشفات من «الأوزو»، وأعود إليه فأجده على جلسته يحاور تلك الأعوام القدريّة التي تسيل من رفدِ الحياة، أتحسسّ وجهه البارد فأبصم على تضاريس مشعة تتحرك دون نبض، فقط... تسكنه... تحلّ بروحه الزاهية فينقلبُ في هذه اللحظات، ويعتنق فصامية بصرية لافتة، للبارانويا حواسها الخمس لكنها تظل فقيرة... بل

كانت فقيرة قبل أن نجتمع هنا وليَكنْ منذ الآن يومٌ جديد، يومٌ أحبّه بعقيدة بقاءٍ ثابتة دون أن يمنعني عن أمسنا الغامض... يكشف لي يورغوس هويات دمه شيئًا فشيئًا وأشعر بنصفه المصري ونصفه اليوناني على حد سواء ويدهشني أنه عاد إلى هذه الأرض بوفاء مجيد في حين أن السائد المفروض هو أن يرحل عنها أبناؤها إلى مدائن العالم المضيئة.

عاد يفتش عن وجهه بقفقاس الإسكندرية الحسناء حين تأخر الفجر عنّا ونحن جديران بفرصة ليلية أطول... آسفيْن يا أيها العمر الماكر أننا هزمنا آخرًا سُمَّكَ الزعّاف، ستظل تراوغنا دون ملل ونظلّ نقيم في هجائكَ انشراحًا ونرفض أن نكون متعة زائلة وكراية حمراء نتقاسم فوق زِنْدِ الحبّ هواءً عاتيًا وسعادة ساكنة في أجمةٍ وارفة، هنالك حيث ما زالتْ تأوينا أحلام الطفولة من وقت بعيد.

أقبع الآن في صدره حتى آخر الليل، ويتوّقدُ صامتًا كصلاةٍ غير مفهومة الطقوس في زمن موغل ونرافقُ معًا درب دمعنا في غياهب الدعاءات التي حالتْ - قبل هذا - دون جدوى.

أتَذْكُر... كم خادَعْنَا الغضب! ثم كشيخٍ مهزوم وبحزن وامتعاض رضينا وانتهينا.

شقة الخواجة يروغوس. كوكينيا.1980

تتغذى الرّوح هذا المساء بعذب الفنون... يرسمني يورغوس عارية الفؤاد كترنيمة أحرقتها جمرة العشق الأول وأحرقها الخيال طويلاً على فرشٍ وثير له طقوس غريبة بمجرّد ما يخلع عنه ثوب الحالم ويرتدي هذا النسج القاسي من الألوان، وعلى لبّ الخشب القديم ينزف بريشته فتَلِدُني كاملة الأوصاف والعيوب دون نشاز، فلا يمكنُ لنا أن نخطئ في رسم جسد جرّبنا به الشعور مسبقًا... يظهر رغم هذا الجمال الرجوليّ الطاغي الذي يتنفسه شيخًا عظيمًا لا يمكنُ أن يَحْويه جَدَثٌ غير أن يكون وريثًا شرعيًا لأحلام قدامى «كوكينيا»... ولا يشفيه من الجدائد غير دربٍ ضيّق مشى فيه أحد أجداده قبل قرون لا تحصى وأراد أن يبتغي في عطره شيئًا من المحبة الأزلية... يتوقّف ويطالعني بدقّة، يطالع أقدامي المنسابة على آخر الشرشف الأبيض ثم ينهض فجأة ويدفع بمجلسه قليلاً نحوي علّه يكشف ما يريد... ما زلتُ لا أفهمه بعد وما يزالُ رأيي الضارب يسود آفاق هذا المصير، وفي ذات الوقت يلقي الكدرَ بعيدًا عن صفائنا... لن تغفرَ الأحزانُ له أنه يجعلني الآن مثل «الماجا» ويثير جدلاً كبيرًا بعينيه في

حين ما يظل حتى الآن المشاهد الوحيد للّوحة... أنظر إليه وكأنني أهرع من نفسي كل دقيقتين لا أكثر، نحو الضفة التي لا أراها من المرسم كي أشاهدَ ما الذي أضافه يورغوس على جسدي ولكنني بحكم معادلات الشوق التي جعلني حلًا دائمًا لها، أخرج مجاهيلها إلى عقيدة زمنه وأحتكمُ حساباته كي لا تبدو سحيقة وكي تبقى أرض أحلامه بعيدة عن الجدوس... الجسد في مجمله مكتمل بخطوطه العريضة ومعمول بألوان جريئة كأنه قبرس لامع استخرج للتو من منجمه، لكن الخُثار في نظره أهم من اللوحة نفسها، كل تفصيلة هي كالقَبْسَةِ المأخوذة على مهلٍ من حرائق قديمة وهي سرّ من أسرار «كوكينيا» الحديثة والتي لم يؤرَّخ لها بعد سوى على ضفاف هذه اللوحة ومنذ ذلك الحين لم تكتفِ من اللجوء إليه حتى تهتدي إلى ذاتها ونفكر معًا كلما نظرتُ إلى ليل هذه المدينة – في حيرة – بحال أولئك الذين لم يهتدوا إلى أنفسهم بعد، أولئك الذين لم يتعثروا بعد بلحظة لطيفة حاسمة، فآمنوا أنَّ الوقتَ يُقتل دون جدوى ثم قتلوا أحلامهم الفتيّة في مهودها وازداد ركضهم فوق هضاب العمر إلى حدٍّ بعيد يعتقدونه مهربًا... يا إلهي، كيف لمدائن شرقنا أن تُعلّمنا كلّ هذا الكفرَ بالأمنيات!

أدخل بصعوبة من الباب الخلفي بيت صافيتا الكبير، وأجدها عارية ساقطة على أرضية الصالون، تهتدي يداها إلى أعلى سيقاني الواقفتين كخيزران مزروع بعناية فائقة، وأحاول أن أسندها دون أن تستفيق من التفكير لأجد يدها المبللة بالأطياف السائلة تتفحص بعض النتوءات على جسدها الهزيل وتسكتُ كي لا يتدفق من أحشائها هذا السحر الذي هو مملوكٌ لها، تبتسمُ لي كطفلٍ صامد أمام فوهة مدفعية وتظل كالسنديانة تلاحِقُ ظلَّ يومها بظلِّ أمسها، ولا تخشى شيئًا ما دامتِ الشمس تشرق بقدرة إلهية صادقة وتشدو الآن لحياتها وتسير عكس عقارب قناعاتها القديمة.

كيف لا وقدْ حيَيْتُ وأنا أشدو لميتتي سلفًا مَرَاثِيَ عنيفة دون يهتزّ في عزيمة الشجن مقدار ذرّة، أرفض أن أخرج من هذه اللوحة ويعجبني نفَسُ يورغوس الطويل وأحبّ أن أردّد اسمه كثيرًا في خفاء حنجرتي، وأحبّ أن أسرد باستمرار كيف يمكنُ للقلوب أن تبقى وفيّة حين لا تتحجج بالذرائع ولا تجعل وجهها رديفًا لمصاعب الظروف وأحكام الأقدار ولا تكون عرضة لقيادة الشكّوك، تُعلمني هذه اللوحة التي لا أعرف اسمها بعد كيف نواجه الألغاز بفتور حين يكون الهروب خيارنا الأوحد!

مرّة من بعد مرّة، تسقطُ كل الوسائط بيني وبين ساحّ المحبة المقدسة، ولا تبقى غير سيول هذه الألوان على

مسودّة حسابٍ كنتُ أراها أنيارًا تجمعنا كي لا نفترق، كي نظل باحثيْن عن العماءة حتى ننتهي، وكل شيء انقلبَ خلافًا لجَيْئَل الكهنة المقيمين في دواخلي، أراه الآن يضع ريشته ويجلسُ عند قاعدة الكرسي السفلية ويشد نواظر رأسه شدة متوازية الوجع ويغمض عينيه وكأنه في لحظة احتضار كاسرة، يعيد إلى جبهته بعض أصابعه حتى تسكن ومع ذلك يبقى ثقيل المنظر وتتسارع دقات أنفاسه وكأنه عاصفة تختلي بعَزارٍ شاسع جافّ.

كلّ هذه الطقوس هي نتاجات خاشعة في معبد فصامي قديم... أهرعُ نحوه وأسنده وهو يكاد يقع أرضًا، آه يا يورغوس لم يعطِ الكونُ المروجَ الخضراء حريتها دون لدغ... وإنّ الحياة ليستْ أكثر من حفلةٍ تنكريّة سكرى يتهادى الناس فيها خناجر، إنّ هذا التحدي صعبٌ جدًا، أن تحاولَ ملء موكبكَ وأن تتطهر بالقداسة فهذا يفوق استطاعة طاقتك كبشر.

يلقي بجبينه على صدري كضيف سماويّ ويبتسم... وكأنه يرى في الأفق البعيد أشياءً أو وجوهًا مبهمة، يخيفني ولكنني أرفض أن أغادر هذا السلوان كدمعة مذنبة وأرنّ فوق منضدة التأملات وأعينه كي يستلقي في هذا الحرث المبهم ويظهر لي ككومة فحم تُحضّر نفسها لعيد قريب، يحرّك شفتيه وكأنه يحادث بصوت مقطوع الحبال، يا لهذه القوة الملحاحة التي تسكنه كمرج سنابل تحنو ناضجة.

يقسو هذا الفصام علينا كموتٍ يقسو على قبلة أخيرة ويقنع طرائح الأمل أن البقاء مجرد انحدار بلا حاجة، يصبح جسدي ثوبًا حزينًا تكتسي به أغنية تناجينا من هنالك، من على النهرّ سويّة ونقضي ليلة شتوية الانتظار، ولا نُغلقُ بوابة حتى نفتح أخرى لأننا ما عدنا نستغني على قواء هذا البرد بسهولة، ويرتجف يورغوس بإيقاع مريض يُدمِعني وأخاف أن أفقد – للمرة المائة – قلبه، تلك الأرض الهَشوم التي أعادتْ لقحطي غمير الحياة.

في نهاية هذه الأمسية، تُسلّطُ أضواءُ المدينة على موسم قضائي جديد وكأن صافيتا الآن في محكمة حقيقية تنعقد للتو لمحاكمة نجيثة شيطانية قتل بها القدرُ حلمًا صبيًا بطلقات متتالية من «بندقية صيدٍ قديمة» يظنُّ الجميع أنها في هذا الزمن دون صلاحية، «اليأس» هذا الميْضنُ الذي يجعلُ الحب منذ البارحة يقيم في سوادٍ أعظم، تُمارسُ فيه «الآلام السادية» في أبشع الحُلَلِ. أسامر ذاكرتها وأتذكّرُ بكل التفاصيل التحولات الإنسانية التي تسكننا جميعًا وتجعلُ من الذات فقّاحًا يَتَصَأْصَأُ كلّما غاب الأمل عنّا ونتألمُ حين تبادر إلينا الجراح، ثم نسكنُ حين تُلازمنا، لا لأنها اغتالنا – كما نعتقد – بل لأنّنا أصبحنا ذا يقين أنها لم تكنْ لتستحقَّ أن نشعر بها،

ومن حقائق هذا قلبها المدهشة أنها تعلّقتْ بالألم اكتشافًا للفرح وبالخوف امتثالاً للحريّة وبالتوحّد تقديرًا للفراق وبقيتْ لا تشبههم وظلّتْ مأساتها الحقيقية في نظرهم أنها حاولتْ إدراك العالم من زاوية غرفة.

مزيدٌ من الإثارة المرضية القاسية لا تمنعُ يورغوس من أن يُحلّقَ من سريرنا الأبيض في هذه الفجأة الليلية إلى لوحته، بوجهه المكدّر كمَن اصطدمَ رأسه برحى ثقيلة، يتميّز يورغوس في مجلسنا هذا بذلك النوع من الحزن العميق الذي لم ألمحه قبل هذا، كَبرَ حُلمنا بِـ «كوكينيا» وكَبُرتْ معه الكآبة وأصبحَ الفرحُ الحقيقي منذ الآن يصغرنا بسنين كثيرة، فأيّة طلباتٍ كان يجبُ علينا أن نُجيب منذ ظلّتْ ثعالبنا الفضيّة المودعة لدى شواطئ الاتهام أمام كلّ سفر ندعوه نكايةً في ألمنا «اغترابًا» ونتعمدّ أن نتذوقه بنكهة كبيرة الأبعاد ونتعمّد أن نعمل عليه في كل اتجاهات الإسقاطات كلّما شعرنا بعصف الريح الذي نبذنا من تلك الأقفاص، هنالك أين سقطتْ رؤوسنا دون اختيار مسبق وبالكاد أتجرأ إلى النظر إليه، لحيته المطبوعة بِوَلِهٍ وسيم متعب تضيّع خطّ أفكاري وأسأل نفسي بعد أيام هل سيكون هذا المكان لنا...؟؟ هل تعتقد الأماكنُ مثلنا أنها تستحق البقاء، فلماذا تتقنُ الأماكنُ هجراننا بمجرد ما نتركها خلفنا فارغة ونمضي؟، لماذا تتقن نسياننا بمجرد

ما يحتلها الصمتُ وتندثر منها قهقهة الضحكات وأصداء الأحاديث...

أحاول أنا ويورغوس أن نستنجد من الوقوع في فخّ الذاكرة بهذه الفوغة التي تجمعنا معًا، ولكنني أستشعر مسبقًا أن كل هذا سيحول دون جدوى، تستلقي هذه الأرواح خارجنا بمجرد ما نستفيق على أن سببية وجودنا كانتْ منذ البداية جنونية وأن هذا العالم لم يمتلك بعد لوثة الحكمة بالقدر الكافي حتى يفكّر مثلنا وينفصم عن ذاته بكلّ إرادة نحو «اللا تَعّقل»، ومن ثمة سافرنا على خاصرة كوكينيا من زمن إلى زمن وتسلّقنا رايات الهزائم حتى يظفر بنا الفرح في علوّ مهيب لكننا لم نستطع أن نحتمي من وقائع حاضرنا وماضينا بعضائل الأمل... أشعر بأن الغد البعيد لا يصل إلينا مهما طال انتظارنا في هذه الغرفة، مهما أجّلنا العودة إلى ضواحينا القديمة ومهما توفّرتْ لدينا قفاوة الليالي هنا إلى ما خلف أصفار المائة.

يبكي يورغوس بخجل، وهو ينهال على رسم اللوحة من جديد، ودون أن يقتفي صوته خطيئة واحدة في حق هذه السكينة، وأنظرُ إليه كأنني وشمٌ صغير خطتْهُ يداه على جسد المحبّة ولم يعُدْ بإمكانه السير خارج هذا اللصيق.

ليس للكلمات من اعتبارٍ حين نمتلكُ الميزة في رؤية الأشياء بعين تختلف عن تلك التي تعتلي وجوهنا دون جدوى...

إن الأشياءَ التي ترحلُ عنا لم تكنْ لنا يومًا...!

آه يا لبؤس وجوهنا كرمالٍ أرضية متطايرة في مجرى زمنٍ وخّاد، أذهبُ إلى يورغوس وأجلسُ بجانبه وتلتصق يدي بملمس لحيته الرجولية المفعمة وأقبّل أسفل رقبته، وأشعر أن هذا المجلس «حِفْراةٌ كبيرة» تكنفُنا قرونها وأشواكها على أرضٍ غليظة بلا رحمة، هل من العدل أن ننتهي؟

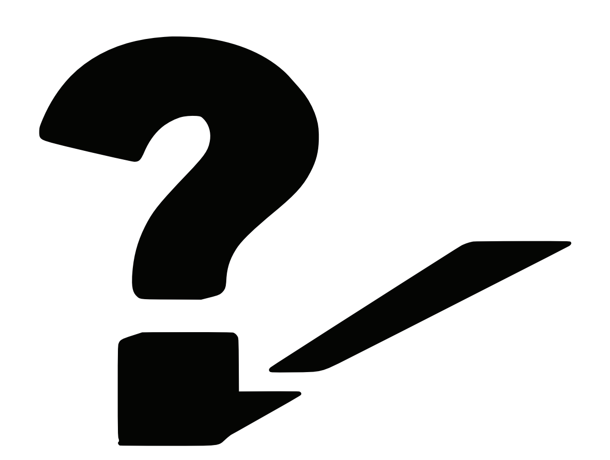
يتوقف عن تحريك ريشته قليلاً، ثم يعود إلى حفيف ألوانه دون أن يجيب، أطالعُ اللوحة معه وهذه المرأة لا تشبهني في شيء، هي عارية بطريقة تختلف عني... لا يمكنُ لألوانه أن تخطّ هذا الشسيف الذي بداخلي فحين تكتسي الأطياف بدفء الورق تكون عاجزة أن تخطّ الروح الشُجْنَة العارية، كي نشعر بالأشياء علينا أن نكون مثلها ولو لبرهة وحين لا يمكننا ذلك علينا ألا نَدّعي...!

يتوقف عن تحريك أنامله مرّة أخرى للحظة أطول من دمعة تأخذ وقتها في شِجَاجِ وجنة نحيفة، ثم يستدير صوبي كحلمٍ زاهد، أنظر إلى وجهه الهالب برهبة فهل يأخذنا الإيمان بأحلامنا إلى كل هذا اللَواب؟

وجههُ كبئرٍ مقعارة، غريقٌ بأسرار وُجِدَتْ لغير تمام وأنا أحاول - للمرة المائة - أن أستنطق سُنُونَهُ اللواحس كي

يهتدي لجنونه من جديد لكنه لا يتفاعل معي كبُقامةٍ صغيرة لا تصلح للالتحاف ويغمض عينيه كي لا أحاول الدخول إليه مجددًا فتصمتُ يدي عن مُذَاقَنَتِه ويصمتُ قلبي إلى أجلٍ غير مسمّى، تحكمهُ المَذاَئِبُ منذ وُلِدَ بداخلي شجني وتنابَذتُ مع قومي وهويّتي وعقائدي الجائرة...

أُبَخْدِجُ الكلمات في صمت فهل نحنُ ميّتون...؟ ويجفّفُ يورغوس سواقي عينيه ولا يعتزمُ شيئًا غير البحث الحقيقي عنّا، وراحَ ينظر إلى فضاء الغرفة والستائر والمرايا المقابلة ثم وضع يده على عنقي كمن يقتفي أثَرَ شريانه، ها هو الآن يتوسّدُ صدري الرؤوم فأضُمّه بشدّة كي نهربَ معًا من هذه البَلاذِرِ الباردة... أرافقه إلى سريرنا الأبيض وأُجلسه رويدًا... يرتجف قليلاً ثم يهدأ بمجرد ما يُبادلُ هذا القطنَ حراراته وأطعمه شيئًا من الحساء السّاخن الذي طهوتُه قبل المساء بقليل، لسنا بحاجة إلى «الأوزو» في هذه الليلة، أبَوصِلُ مذاقات ألسنتنا ويروق له أن يستطعم هذا اللِخّاءَ كعطشٍ يرويه بَلاَصٌ طيني معّتق، وننزوي بعدها في عزلةٍ ثِرْعَامَةٍ، نُبَّظرمُ امتعاضًا على صباحات قادمة وما زالتْ لنا قدرة كبيرة على أن نسأل دون أنْ نكترثَ للإجابة عن استفهاماتنا القفداء، كلَوّاسَيْن نتتبع مطالبَنا رغم أنّ كل ما طرحناه سابقًا لم يكُنْ سوى وَزْوَزٌ ومرَارَة.



نداء الفـــادو...

نفتح باب الأتولييه بعد مائة ليلة من الغياب ونجده باردًا، يلبسه الصمت كبُخْنُقٍ صغير، وترتديه صافيتا كوجهة إجبارية حزينة... أدخل خلفها وأنا أعوذ بهذا المساء من خبائث تسكنها وتغالط الفرح في هذا المكان منذ زمن... تسمع صافيتا بعض الصمت خارجًا فتتوقف ثم تواصل خطواتها المتعبة نحو الزجاج العارض للأحجار الكريمة المتبقية وتنظر إليها وكأنها تشتاق إلى أشياء كثيرة لا أعرف حتى الآن ما هي؟؟... تنظر إلى حجر صغير يشبه العقيق وحين أقترب منها أشعر بأنها تُفثِّدُ روحها بالنظر إليه.

أسأل عن أخبار ديره وعن فُتُوءِ هذا القدر - وحيدةً - وأجيد الانتظار... كل ما أجيده على هذه الأرض هو الانتظار، أنتظر اليقظة كلما حاولتُ فَثْغَ الفِصَام وأعود لانتظار الفصام كلما أغرقتني فثاثيدُ يومياتي العادية الميّتة... ولا شيء يعزيني وأنا أنظر إلى إفريز هذه الشرفة المغلقة... عهود تموتُ وتحيا في صمت، ترى هل يُفكّرُ بي يورغوس الآن... هل ما زلتُ فرزان مساءاته المفضلّة... وما أخبار كاسات «الأوزو» التي حادثناها

معًا في سماء قدرنا الحافي مثل أفراد القَبَج المهاجر الهارب وبعدها تطايرنا في هذا الوهيس بقرار مفاجئ بالرحيل اتخذناه معًا دون تردّد... لماذا لم يبُح لي يورغوس بكل أسرار سكينته إلى أن افترقنا وخشفَ البرد فينا لأجل أحلام افتراضية صغيرة ومتعبة... أنتعلُ الأرضية الجافة وعبثًا أستجدي من هذا الديجور قمحًا للأماسي الجائعة... عبثًا أستنطقُ سكينة هذا الألم... عبثًا يعتلي أملي سرابَ الأفق الفشوش... عبثًا ألتقي هذه المرآة وأفرغُ في وجهها ثبنَةَ عيني من بريقها الكئيب... عبثًا أجاهرُ هذا السرير بأسئلتي وأغالبُ في استجوابه كي ينجلي هذا الليل إلى فجرٍ قريب... عبثًا خَربَشْتُ بأظافري في وجه هذا القدر الفَيْخَمان دون أن أكتسي بصدر رَجلٍ حبيبٍ حتى النهاية... عبثًا أحاولُ الحياة كشمس صغواء وأتدلى حين أهدي فشلي الذريع إلى صديد أماكن صنعتني بقدرية عجيبة... عبثًا يأكلني الشوق الآن إلى أشياء لن تعود مهما اكتَبَيْتُ بالرجاء... هذا الصحو يزعجُني... كيف يمكنُ لي أن أتلبَّدَ من جديد وهذا القلب يمشي كواحد من نجائب الموت.

تتهاطل روح صافيتا كسماء النورت بيكورت حين كانت تمطر وأشعر بمطرها غريبًا... لا يشبهني، صَقِعٌ... عاري الأعماق... يسقطُ على شعري ومهما غسَلتني خمرة غيماته أبقى كالعُبام محمومة وثقيلة وعاجزة.

لكن كيف لي أن أشعر بالمطر...؟؟... هل يشعر الموتى بالمطر...؟؟ هل يبتلون بدقّاته على الأتربة الكثيفة...؟ هل يرتعشون من حين لآخر لومضةٍ مفاجئة من برقٍ كنيب...؟؟... هل تُقلّمُ أيادي الموتى كل مساءٍ ذلك الزرعِ الفتيّ الذي يعتلي قبورهم مثلما يحتفي الأحياء على شرفاتهم بالورود؟؟... هل يؤمن الموتى بالمطر دون أن تخلقَ الأرضُ لخريفهم موسم عيدٍ تزهرُ فيه الرُفات؟؟... هل يشتاقون لذكرى مشيةٍ عابرةٍ مع أصدقاء الطفولة القدامى - تحت المطر -؟؟... هل يتقاسمون مثلنا ما تحت الأرض مدائنا وفضاءات؟؟... هل يملكُ الموتى أمنيات؟؟

ألقي النظر خلسة على الفصل الأخير من ورق كوكينيا في حقيبة يدي السوداء الموضوعة جانبًا فأجده تمامًا مثلما كانت تروي لي قبل دقائق... تظهر صافيتا وهي تحمل ذلك الحجر الشبيه بالأوبال كقرية يظهر مَخْرَجُها الضيّق كنَفَسٍ يضيع في صُعَدَاءِ الندم ويبتليها بنوع آخر من السكينة المقفلة بحكايات ذعر كثيرة... وتسرح وهي تستحضره كمدينة عاشت بها وحملتها في عنقها كقفل فقدانٍ وفيٍّ لجسر «الحبّ» الباريسي الشهير... لكنها أطعمَتْ حلمها هشيم السنابل كأنها أرض الريب الميئوس منها، وأغلقتْ عينها وكأنها دليلٌ عرّافة لَضْلاَضٍ.

أشتاق إلى رائحة جسده وأحاول أن أستحضر شيئًا من ذاكرة الأنفاس دون جدوى... وتَلْضمُني تلاحينُ «أماليا رودريغس» بإلحاحٍ مخيف يجعلني أسمعُ أقدامه بجواري وأرى لوحته التي لم تكتمل والتي رفض أن يخبرني عن مصيرها في تلك الليلة الأخيرة وهو يهديني أسطوانة «فـــادو»... جُنِنْتُ به منذ كارَزْتُ إلى قلبه واختبأتُ فيه من كل ضجيج الكون وعندها أدركتُ أن الجنون هو أن نبلغ هذا الحدّ من التفكير... أن نغرق دون أن نهتمّ لأيّة مرساة... أن نرحل دون أن يخيفنا الفقدان... أن نبقى دون أن تدركنا النهاية مهما كانت غبشاء.

فهل ينام يورغوس صامتًا قرير هذا الليل دون أن يُكارِدَ عُنقي على وسادة فَرِحَة؟... هل يمكنُ لامرأة أخرى أن تحتَل تفاصيل مُخيّلته وتهزمني بالنسيان وهل يغزو ذاكرته صوب هذه القرية التي تحملني كلما جانفَ وجهي رصائف الرحيل لأجله؟؟... هل آمن بي يورغوس كما آمن بكوكينيا وهل سيعود لغبوة حلمنا معًا...؟ أذكرُ أنني أبقيتُ موعدنا مفتوحًا حتى النهاية، حتى أقلعتْ طائرتي وأنا أشد تلك الجريدة إلى معطفي كأية امرأة عادية تنتمي إلى راهنِ هذا العصر الصعب... وأنتظر أن ينصهر هذا القلب من بِرَكِهِ المتجمدة إلى باحة عُشّاقٍ ملتهبة، تحيط بها المقاهي والملاهي المكدسة ومع كل تلك الضوضاء تبقى مقّدسة ونابضة وغير عادية.

لا بد أن أنتهي هذه النوبة، أُحضرُ بطانية قطنية سوداء وأزمّلُ صافيتا وهي تحتل أرضية الشرفة كشريدةٍ بلا مأوى، يُقَبِّلُ وجهها يمينَ الطاولة الحجرية الصغيرة التي تتسع لمجلس شخصين ومع ذلك لم يكتمل حلمها البسيط بها يومًا، أضمها فتحاول أن تغفو في رتاع هذا الهدوء ولا تتردد في الخروج من هذه التيارات اللا مرئية التي تنسج حولها كيعسوب مضيء حقولاً من الشكوك وتضني لَجَاجَةَ هذا القلب الدامع... ثم تناديه بلذّة هادرة وهي تتصبب عرقًا.

آمنتُ بهذا الليل كيفما رتّلني ولن أغادرَ حلمي بكَ طالما أشعرُ بالمطر في هذه الزرقة الحالمة، سأظلُ أستندُ إلى ظلالكَ جنبَ هذه الأرجوحة وأسكبُ الألوان في دروبنا المقفرة ويُخَيّلُ لي تحت أسياخ هذا الضعف الوكواك أننا - منذ التقينا - سنلتقي... سنظّل نلتقي...

ويتدفقُ دمي في مسارات صحيحة ويُغالبُني حلمي كبُخار طعامٍ باردٍ على مأدبة وداعٍ... قطراتُ المطر تتسللُ إلى الجهة السفلية لسقف الطاولة مدبّبة الأطراف وأحتمي به من هذا البرد المذعور... لا سبب يجعلني أدخل غرفتي الليلة، فقط حين أستلقي هنا أشعر بأنني على صلة مع هذا العالم...

كأنني أتهيّأ لأحـلام غير مخيفة في مغاور سكينةٍ غير مـؤذيـة... يبتلعني النوم وأنـا أشتهي قدح «اكلينيكوس» ساخن ولا أشعر بأطرافي وأغفو وما زالت الريـح تذرو على قِطَعِ جسدي المبعثرة رماد ميتتها المهيبة.

المركز الطبي الجديد.قسم الطب الباطني.الإسكندرية 2020

لا يستحقُ التقدير – منّا – كل حلُمٍ ضعيفٍ يغادرنا دون أن نشعر بفقدانه...... ولا تستحقُ – منّا – التبّني كل الأمنيات التي تقفُ مستعطيةً على باب الخريف... مشكلتنا نحن البشر أننا نرفض أن نخرج من هذه الحياة آمنين برصيدٍ يساوي الصفر من الأحلام ويُغبطنا كَكِنانةٍ فارغة أن يشيع الوهم فينا بالانتصار دون أن ندركَ أنّ السِّهام التي رميْنا بها وجهَ أقدارنا كانت أبهى السنين الهاوية من فرح العمر المسروق... وتأكلنا فَرَاحَى نارُ الصَباَبَة كفرائص تستوي كي تُؤكَلَ بعد مائة عام... أو مائة ليلة...

تستلقي صافيتا على ظهرها وعيونها مغمضة لكن ألسنة روحها لا تهدأ وكان من الصعب ألا تخذلني ونأتي معًا إلى هنا لكنها فعلتْ.

وداعًا أيّها القلب الكئيب... سوف أخذلُ منذ الآن حُلُمكَ المنقوص كلمّا شددتُ على أفوافِ الزهر بساعدي وغمّرْتُ هذا الليل بخصائل الدروب المطروقة الهائلة المؤدية إلى الفرح،

سأبدأ في إعداد حياة جديدة وسأكسرُ أفؤود ذاكرتي منذ قدمتُ من أرضنا المذكار حتى الساعة وسأكفلُ حلمي بكوكينيا وأحضر كل شيء هنا حتى ترقى نزائغ هذا البحر المجاور إلى مطالع المعجزات ولن أكتفي، سأتعلّمُ منذ الآن ألاّ أكتفي من الفرح، سأمتطي صهوة الفصول المتقلّبة وأنجزُ أشياءً مفيدة وحقيقية وأتبعُ مدًّا بلا مستقّر... سأؤمنُ أنّ يورغوس عائدٌ لي وسوف تتعالى باسمه النداءاتُ الفجرية إلى أن تصل الأصداء إلى محاكم «البارناسوس» التي ستزفّه لي أسيرًا من عوالم الفراق إلى لزاز الشوق وبعدها سوف أظلّ أدّقُ طبول الإهانة على نواظر اليأس الذي أقيم له أفخم المشانق في فضاء هذه الغرفة وسأنشئ باسمنا – للحبّ – مذهبًا جديدًا وسيكونُ هذا الانطباع الأخير لي دون ندم.

انصتُ لها بفرح يفوق فرحها وقلبها منذ الآن رَداَحَةٌ تُصادُ به أفراح العَطَابِل كي تزداد وتكثر جماميح الشجن وسوف تقود من هنا عالمها... وتجلسُ جنبَ ركبتيه حين يعود كل مساءٍ وتحتمي بدخان المدفئة الحطبية الصغيرة التي تنوي إعادتها إلى الحياة حينَ تُغَلْصِمُ الحطبَ من شجيرات الغابة المجاورة – حين يعود – وسوف تضحكُ بصوتٍ عالٍ ربما وتنتظر «عيد الميلاد» كبقيّة النساء بفستانٍ شتويّ أحمر بهيج.

سأهتّم منذ الآن بحقائب يدي المهملة وأرتبّها لخرجاتنا المسائية وأعيد تصفيف شعري قبل النوم بفرشاة كبيرة، شائكة الأسنان مدورّة، ولن أكون منذ الآن غُفاءَةً في صدر هذه الأرض... سأعود إلى ذاتي ضَليعَةً في نكابة الفصام ولن يكون منذ الآن أقصى حلمي لَمّاجَ فرحٍ صغير، سأفتحُ أدراجي لأجِدَ أقلام حُمرتِي يابسةً، أقلبّها واحدًا تلو الآخر مهما انكسر بعضها بمجرد ما أفتحُه، أقلام الحُمرَةِ مثل قلوب النساء فلا يمكنُ أن نتحضر لعيدِ جديد بقلم حُمْرَةٍ شاحب ومُستهلك، ولا يمكنُ أن نجدّد عهد الفرح بقلوبٍ ممزقة البريق، يشترط الفرح ميلادًا جديدًا لعزيمة الإيمان بالمحبة، ومن هنا أرى وجهَ أحلامي كبنايةٍ جديدة لا يقتنع بمِعْمَارِها الناظرون سوى حين تُغرقها الزينة بعد سنوات من الصبر والشقاء وما كانتْ لتكون لولا السّنمار الشيْهمُ الذي آمن بوجهها منذ البداية دون أن يراه، آمنَ بها في أعماقه حُلُمًا حتى لا تَشْجَب... وأنا البناية العتيقة التي أعاد يورغوس بعثها في خفية «كوكينيا» بفرحِ شديد حتى شامستْ في ولهها النار وأغْبَرَتْ سماءُ أماسيها بعطر البنجكشت وأصبَحَتْ ما أنا عليه الآن.

ورقة أخرى تسقط من رزنامة الانتظار والانتظار لا يستحق أن نعّدهُ سوى بالتنازل الأجوف، هذه الليلة موقّعة بطعم «الفادو»... هنالك دبيب جديد للحياة في هذه الغرفة،

تلامسُ روح صافيتا حيطانها دون أنين كي ينتعشَ الورقُ الذي يُغلّفها بلون الغار، كي تُزهر بعض اللوحات المعلّقة من تحت غبارها الطفيف، كي تعيد نسج علاقتها بأحجارها وتستجدي منها وعودًا تستوفي لذة الخُدالة.

منذ الآن سأفرغ ذاتي منه اقترابًا من حُلمي وسأجيد الاحتفاء بالبيلسان ذهابًا وعودةَ بين أعضائي النحيلة حتى تحيا وتواكب عهد الفرح الآتي المحكوم بورقةٍ قنصليةٍ تُمْنَحُ لمواطن يوناني حتى يسيح في كوكينيا، ما أضيقَ الورق، ما أصغرَ الحدود، وما أعجزَ السياسات... ميثاقي به يجمع بين مدينتين وقارّتين وثقافتين وقلبين وعقيدتين على سرير حلمٍ واحد وما زلتُ أفكّر وأرتّب التفاصيل الصغيرة لغرفتي وأعدّ منها مهدًا في مغارةٍ حالمة بفجرٍ جديد قد يُغيّر تاريخ البشرية حين يدخُل العاشقون ملّتَهُ ركبانًا ويستريحون من زحفهم الطويل وراء أشلاء قديمة كانوا يحسبونها أحاديثَ لوجدانهم وعندها تعتلي المحبة عرشَ ياسمينٍ كبير وتعلنُ اكتمال أركان قيامتها الأبدية وتُعلنُ عن صيغة قَسَمِها، عن طقس «الأوزو» المعّتق وحين يعود يورغوس سيصبحُ الإنسان نبّيًا للمحبة وستنتهي الخيانات من على هذه الأرض وستُصبحُ أَنْهُرُ كلِّ الفصول أطولَ من لياليها وسيتّفقُ العالم من شرقه إلى غربه وبعد مائة عام... أو مائة ليلة لن تتكرر مآسي شرقنا وسيصاحبُ النور

مظالم آدم الغريقة في أقمطة القنوط وسأسمع عن قريتي الإفريقية الصغيرة أنّها أصبحتْ مضيئة وأن «البارانويا» لم تصبْ أحلامَ أيّة «أنثى» من بعدي... وسيطلبُ الأمواتُ العودة إلى فضائنا المنبوذ هذا حين تُشعُّ على سكينتهم أطياف فرحنا وتطربهم دقّات أقدامنا الراقصة ابتهاجًا... بعد مائة عام... أو مائة ليلة... لن تكون قلوب النساء دقائل منقادة وسوف نتحررّ باسم المحّبة من أغلاط العُرْفِ القديم وسوف نَكحصُ أثرَ الوجع وسنوقفُ حروبنا الأزلية وندفنُ ثُنائياتِها المتناقضة ونكبحُ الذئاب العاوية فينا... حين يعود يورغوس سينتهي زمني الأغبر ويهدأ في قلبي الغُقاق وسأحبّ نفسي كثيرًا... سأطالعني في المرايا كلما تخاجأت مذاقاتي المسائية في لسانه...

وأغفو قريرة البسمة.

المقبرة اليونانية الأرثوذوكسية. الإسكندرية،
الخامس عشر من شباط 2020

«السّاعات» كتابٌ كبير... هو ذا يحلّ عيد جديد، أوقفت صافيتا عقارب الحلم حتى نلتقي... وحملتْ في جعبتها منازل القمر الكثيرة ووصلتْ بأيامها إلى نقطة واحدة، وفي هذه الأُثئيةٍ الصباحية نجلس على هذا التراب الأصلف ونرى ورودًا ميتة بجذورها الصقيلة، تقاوم صافيتا وتأبى أن تنتهي غمرتُها للآلاء التي تحيط بالسور الخارجي وتحتمي بصواب الوفاء، وتبتسم لي حين تُسقِطُ عنها كلَّ ورقها الماضي وتمتصخ لوجهها الأمل... أمسح بيدي حولها وكأنني أكتبُ عليها الهناءة كي يسوغَ بنا ورع الانتظار معًا إلى قلوب لا تكفّ عن النبض مهما كان الغياب قاسيًا... هنا ترقد برجلجوت صاحبة المذكرات الحقيقية وتقصُّ بعض أطراف الحكاية بإزاء الصبر، تمامًا كما تنبأت العجوز «خيرترود» في فالنسيا قبل عام لصافيتا وأعطتها عهدًا ثقيلاً في قطعة صغيرة من الأوبال الحقيقي، تهجعُ برجلجوت بين هذه الحجارة المتناثرة بمجرّد ما يُنِيمُها دفء الأحلام فوق هذه النداوة.

وتصبحان متماثلتَيْن بجذور مقصوصة متساوية، تنتظران أن تنبجس منّهما حياةٌ جديدةٌ مستحقّة، في هذا العيد يوم وُلدَ يورغوس، رُسوليةٌ جديدة تختلف كثيرًا عن ثلاثة عقود عاشتها صافيتا عند معصم الفرح لابخةً كوردة تحمل أنداء فجرها فوق قبر منغلق.

هذه الحديقة الصغيرة الهرمة تواصل حلمَها كامرأة تُهرولُ مرتجفةً من البرد للّحاق بسهرةٍ قلقةٍ يتثاءب فيها الرجال كسلاً، فتنتزع عنها فَرْوَ كتفيها وتراقصُ حلمَها ببطءٍ دون أن يجرحها النسيم مهما استيقظتْ ريح هذا الليل.

أمضي متهمسّةً إلى عتبة الباب بعدما أنتهي من زرع ليلكٍ جديد يليق بفرح العمر الجديد وأشاهد قسمات هذا الخشب القديم الذي يكبرني بين ممرّات السكينة ويبقى متحجّرًا وصامتًا كوشيعةٍ لم تُكلّمها بعد فضاءات النائمين... وإنني في انتظاره أرتقبُ الحياة... سأجعلُ شيئًا ما يحدثُ هنا في الأيام القليلة المقبلة، وأكتسي من غور الآلام دماءً مزهرة وأعتلي هذه الأوقات الثقيلة على أورابٍ النسيان المخملية... كل الحواس صارتْ بعيدة... أحيطُ بعرش الساعات المتصاعدة بامتثالٍ رهيب ويأسرني نداء جسدي إلى سرير فارغ يحتّل زاوية ميتة في الطابق الأول... أفتحُ الباب من مقوده النحاسيّ لأجد نور الدهليز الصغير يتراقص على الأردية البيضاء التي علّقتها

عند المدخل حتى يدركني يورغوس حيثما أتى... سرقتُها منه باقتناع لحظة فراقنا دون أن أدرك سرَّ أسرِها له... فأنا التي علّمَتْهَا عيناهُ أن تمتلكَ الأشياء بوكالة المحبة، ومنذ تلك الليلة التي ارتديتُ فيها فرح العرائس، رفضتُ أن أُخْرِجَنِي من مداراتِه كلّما التهبْتُ بجمال روحه وغادرتني المخاوف والأوجاع ...

وخارج هذه الشرفات المتعبات الآن أقف وأنتظر أن يهربَ حلمي إلى حقولٍ تتطلعُ رغباتي، وأريد أن أبكي كلّما استحضرتُ نوتة مَلامِسِه التي لم أرثْ منها شيئًا حتى الآن سوى المغيب... أُلْصقُ جبيني على حجر النافذة كَغرّةٍ ليلية في قلب السكون ويوجعني هذا الأسى الذي يقيم في رَحِمِي... كبشارةٍ مظلمة كنتُ امرأةً غاضرةً في أماكنَ باردةٍ منسية، الآن فقط أسير إلى ذاتي على ضروبي المهملة وأتكبّدُ أعماقي بلا انتهاء وأتماسكُ كغيْظ العطش بين البضائض... مؤمنة أنا بوجه المحبّة الذي أعادني إلى ريحان العمر لُدنَةً وأزال عنّي سكينة الحُنُوط وما ضاقتْ من بعده رَغْبَةُ الأحلام قطّ... أؤمنُ بك ولا أدري هل تدركُ المسافة الفاصلة بيننا ماذا يعني أن تؤمن صبيّة كافرةً في العراء بمطرٍ غزير كوهج النار بُعَيْدَ الصلوات... أغلقُ نافذتي وأفتحُ جماح اللذة بكَ وتلفني عقيرةُ

الشوق كأغنية أطلقتَها للتو على ظهر جوادٍ أشقر تعلو شاكلته حسب مويجات قلبكَ.

أنا يا يورغوس بركانٌ من غبار.. نزَعتَ عنّي كريفٍ مبرقش خوذة العناء الشتوي الطويل ولم أحركّ شفاه الروح منذ ذلك الحين سوى هتفًا لرايتكَ وأتبَعُكَ في هذا السهل عاريةً وداميةً وأطلبُ وثاقَ الحياة بانهماكٍ شديد وسأعثر ذات يومٍ على ركنٍ يجمعنا سرًّا ويطعمُ باحة هذا البيت بنفير الأبواق وضحكات الأطفال وزاد الفرح.

أنا يا يورغوس يدٌ معادية مهزومة أمام أشياء تحدثُ مرّةً واحدةً وتمضي، فاجعلْ من فؤادي ينقلبُ احتفالاً يتأرجح على أنسام نبيذٍ غامقٍ يلوذ بأذيال الفرح.

أنا يا يورغوس وصيفة وطنٍ حزين برداءٍ رقيق ضامر، أجتمع بين ألواح السنديان مع ليالٍ طويلة فارغة ويغمرنا الظلام كصلاةٍ وجيزة ثم ينهار على وَرَعنا الزمن ثم نحترق ونحن نستبقُ النار إلى دوائر الفرح.

أنا يا يورغوس خامة نهارية لم تكتمل بعد، مهما ارتسمتْ فوقها مُسُوح السنوات ومهما نبتَ الغارُ في سوائب النسيان.

أنا يا «يورغوس» قصيدة مهملة لا تذكرها باحات «البارنانوس» بعد... إلى أن رتّلتَها و«كوكينيا» في صدر

الأغنيات اللاهبة إبّان الليل الطويل وحملتَها كبذرةٍ صغيرة بلا صخب وأنجيتَها كجسرٍ ممدودٍ فوق هاوية.

يحذو هذا الليل حذونا وأَسْأَلُنِي... هل صافيتا حقيقية!

شرعتْ بتدبيج مدائح الموت وأنا أتحدّر من الظلمة لها كي تراني بوجهي الحقيقي... وما عرفها أحدٌ غيري منذ ذلك الوقت وكانت الشعلة على مقربةٍ وما زالتْ ولكنها لا تطالها مهما آمنتُ بالليل ومهما تمَلْمَلْتُ في كنف الجسارة وظلتْ كالحازي المغضوب عليه، ترغبُ في الصراخ كغريزة شديدة التوحّد ولا تعرف منذ الآن الخوف أو الغضب وتحلّق وحيدة وراصنة إلى الاحتفاء بالتحرّر من كل تلك الضآلة بثبات حصيف...

لن تؤمن بالانحناء في أي مكان قريب من هنا... قريب من حلمها... هنا أين ستولدُ من جديد وتنتشر بكاملها في معقل الأمل كماءٍ مقدّس يجتاز المضايق ويُزَغْرِدُ من إبريقٍ عيده الإلهي ضد الأحكام الباطلة التي تخدمُ مقاماتِ الإنسان على سطح هذا الكوكب، وتجعلُ من أعماقه المتحوّلة ذرةً بعد ذرةٍ محضَ غبارٍ حزيب يتقّوض بفرح النرجس بين فراسخ المصالح والخيانات والأنانية، وتقدر من هنا أن تحيط دون انزواءٍ بهذا الفضاء بنظرة واحدةٍ وبإيمانٍ، تغيّره إلى زخارف خالدة تصنع لها الحقّ في أن تشاء... في أن تكون صانعةً

للضوضاء وتتنكّر في رمزٍ ما كمفتاح الحياة وترْسمُ قلبها ببيكار الزمن على وجهه باقتضابٍ ودقّة.

فعلامَ تهيم الحواس بين هذه الساعات الجارفة، فَلَمْ يَعُدْ الخوف ماثلاً في ذات الأَلَق، أصبحتْ صافيتا تُحْسِنُ استعمَالَه كموسيقى تنظرُ آنئذٍ من تحت جناحاتها في صمت الدهشة وتعكسُ ذاتها في سائر الأشياء مُتلفعةً بمشيئة فرضيةٍ لا ملاذ لها.

ما عـدتُ أعْـرِفُـنِـي... كفاصل سـكونٍ بين دمعتين... سأنتظرُني كطابةٍ مسائية المذاق، أن تتقاسمني شفاهكَ على طاولة وَعْدِنَا، ويتلافى لي السقوط في راحتّيْكَ ولا أحلمُ الآن واعيةً ككلّ النساء أن ترصّعني بخاتمٍ يربطنا معًا، فقط اعزفْ لأصابعي كل صباحٍ أغنية لا يتلقفها العطش وأخفقْ كبذرةٍ تيْنعُ تحت الشموس إلى أن يفيضَ على شبابنا الكِبَر.

كل ما في القلب ينهمرُ بتكرار ويأبى أن ينتهي هذا اللعب الشائق مع قَـدَري ويستضيفُ ظمئي في مواضع الألم العديدة... لكنني الآن لا أشتهي الموت ولا أكتفي بالانتظار وينفرطُ نبض دواخلي إلى أسارير وجهي المخْضَّل بأحلامي الأنثى إليه... وأحاول أن أكون كاهنة صادقة في هذا المعتَكَفِ كي نجتمع في حلمنا الذي ما يزال طفلاً في إيماءةٍ عذبة لا يشوبها صخب الأمـواج في هذا العالم الذي يزدحم حولنا

بالأحكام وبالحروب... لا شيء كان قبل هذا النور نـورًا... لا شيء اجتاحني بهذا الحنين العارمِ من قبل... لا جسدَ من قبلكَ كان للقلب سِفْرًا من الأفياء ولا رجلَ اتخذني امتدادًا لمناحيه السماوية مثلما فعلتْ... عركتني الحياة بأوهام بهجةٍ مزجاة واخترقتَ ضيائي الفقير فوقفتُ أمام محيّاك كنجمٍ صغير عائم اصطدم بأجرام سماوية هائلة... ولبثَ مائة ليلةٍ يتأمل موقعه في مجرّة غامضة...

كما تأملتُ منافذ وجهه المشعشع بألوان الأبنوس... وأشتاق لقياس قلبكَ الرّحب... أناشده... حبًّا بزمني الذي يرجوك... عُدْ لي.. عُدْ كي نرتاد معًا مرمرَ عمرنا الوضيء... عُدْ لي كي نعتلي هذا الزمن الأرضي بمراحل لا تحصى... كي نكون فروعًا في شجرة المحبة الإلهية التي خُلقنَا لأجلها، وأتتْ عليها مظالم دهرنا وآثامنا الكثيرة ... عُدْ لي فأنا لم أُزْهِرْ قبلك ولم أحظَ بغير الذعر وكنتُ الذكرى اللاهية بأمسها وأنتَ وجهها النقيُّ الأوحدُ الصادحُ في كل شبرٍ أقامتْ به من «كوكينيا» إلى «النورتبيكورت»... عُدْ لي ولن أبالي حين نقاومُ معًا كالفلزّ سيوف أقدارنا والأقدار مجرّد حلقيّة تديرنا تحت نقابٍ موجعٍ جائرٍ كلما استضعفنا في طيّاتنا شموع الأمل وكنا تلك «الأنا» الضيّقة تحت مشارف البكاء... عُدْ لي وسوف يعتليني نكران اليأس كصلاةٍ أخيرة فأنا ما زلتُ أحيا ولديّ في انتظاركَ زمنٌ

كافٍ لا يخشى في دوائره المتّسعة عدم عودتِكَ... وبكثير من الصبر الخائر أكسر جرّة الرحيل في ساعة الغروب وأرفض أن تجيء إلى هنا وتبحثُ عنّي طويلاً كتمثالٍ صغير وسط حجارةٍ مجهولةٍ عاطلة عن الحرية... عُدْ لي وسوف يصبح موقدي المجّلل بالسخام منيرًا... أنتَ يا أيها الباقي أبَدَ الدهر في توتّر هذه الأصوات القوية...عُدْ لي فأنا المتعة التي تهفو إليكَ من بعد ما داهمتها الوساوس... أنا الصورة الورعة للهروب وللهجران... أنا النار الغريبة التي سترقص على إيقاع طبلِكَ كلّما تعانقتْ أذرعنا العارية وبعثتْ لون الحياة الورديّ على وجناتٍ يعروها بلبال الشحوب... عُدْ لي وكنْ واثقًا بي فأنا لن أُخيّبَكَ أَبدًا...

ولديّ أناشيد كثيرة تملأُ هذا القلب ولم أطلقْ لها العنان بعد... تحدثّني الذكرى عن بلادي البعيدة وتختلط في جواري أزمنةٌ صنعتني حتى هذه الساعة وظللتُ لا أشبهها في شيء... استترُ بشعري في ذَرَى هذا المطر الخفيف وأتماسكُ بيقيني واعيةً كخيط رفيع في حقل خلانج... ويعبَسُ انتظاري الجائع وأغمض عينيّ على أنْ أسمع في السرى مشيةً سريعة متعبة يتباطؤ إيقاعها كلّما اقتربتْ من مجلسي وتنتابني رجفةٌ خائفة تهزُّ أصابع قدمي إلى معقلِ أفكاري المُعدمة وأتوقّعُ أن يحدثَ لي شيئًا بجيلاً كالموت أو الفرح... لكن هذه الأحجار تطرحُ

من سكونها صخب أنفاسي ودقات قدميكَ الخفيضة وأظل وحيدة بعدكَ كشقّ في صخرة... كي نغيّر ربما بلقائنا يومًا كتلة الظلام الثقيلة التي تتأبّدُ خيالنا وتعبثُ بنصرنا وتتّكثفُ حولنا كسناجب في غابة عوائقٍ بور في هذه الساعة المُلْغبة التي تملؤني بظلال الإهليلج وتجعل رائحتكَ تصلُني كعائدةٍ إلى الحياة... ابرنقَشت الروح عندما خالجتني إلى أنْ شعرتُ أن الكون الآن أصبحَ مكتملاً غير محتاجٍ إلى إعادةِ بناء وكنتُ نجمةُ مسائية عالقة على مسارها الصحيح حول عنقكَ في تلك الغسوق القباثر التي تنتهي للتو أمام فرحِ فجرنا الجديد.

ـ «يورغوس».... ما كان لي من خيارٍ سوى أن أنتظركَ هنا في رهبة هذا الأثير، سوى أن أستعذبَ مذاقات صمتنا معًا، ولم تمنعني حشود الانتظار الخرساء عن هذا اللقاء وأودعتُ روحي لديكَ كميلادٍ جديد بين كنوز الحيوَات، وكان غيابكَ بمنزلة غروب الأرض وكنتَ لي عزفًا ينتصبُ على أوتار القلب كجيتار خشبي تصخبُ فيه المياه واختلقتني نشيدًا للأعوام الجميلة اختلاقًا... وفَصَدْتَ عمري بالمعجزات دون أن تحاججَ المنطق المتحجرّ كالصنم في تكراريته وجماده وضعفه... حبيبي... لا تلتفتُ الحياة لنا سوى حين نحمل أفراحًا ولن يهزّها دمعُنا مهما ركضنا خلفها نشكو حَبَلَنا بالوجع... حبيبي... سنتساوقُ معًا بكامل صبرنا ولن نكفّ عن الطيران وسوف نصنعُ من كوكينيا

أرضًا للحلم، وسوف نستحضر ذكرياتٍ مهيضة الأجنحة ونحْييها كل صبيحةٍ مهما تهالكتْ حولنا وجوهٌ وذاكراتٌ غفيرة وأضمّك الآن وأفهم للتوّ كيف كان يمضي الشعراء الفتيان في باحات «البارنانوس» في لياليهم الطويلة المظلمة وفي طرقهم المعزولة اللا منتهية، وكيف كانوا يتوارثون بذرة العشق في التسبيح باسم المحبّة.

تغلغل بداخلي كيفما يتغلغل الثلج في منافذ ورقِ جريدةٍ تركها محاربٌ معزول على طاولة حجرية خلال الحرب العالمية الأخيرة، ولنبدأ معًا عصر سلامٍ جديد فشلتْ في إيصاء فتيلته كل الصالات المستديرة الكاذبة التي يتخاطبُ فيها الأقوياء ولا يختلفون في شيء سوى في تثمين دماء العاجزين والمحرومين وتبضيعها في ريع مزادتهم... نحن هنا يا يورغوس أكبر من كل النظرات المرتابة وحياتنا بِسِعَةِ ألفي عام، نُهَسْهِسُ في أحضاننا وكأنّنا في جنائن ذهبية... هذا الحاضر لنا ومن حقنا ولن يشطرنا الليل بعد الآن، لن يجرفنا الموج بعد الآن إلى ظلام مُلتاث... الليل عرّاب فرحنا ونحن وجوه الأمكنة وأنباض المدائن... كلما وجدتُ تعابير وجهكَ المنير تعبقُ بابتسامة قاتلة لا تُقاوَمُ وتتقطرّ على قلبي كمطرٍ يتقطّر على ديرٍ فَرِحٍ.

ويندحر الموتُ بمجرّد أن أتلفّظ اسمكَ كفجرٍ مكتوبٍ على سهوب الأبدية... ما عادتْ تُبهرني الأشياء حين تتجلى

باختلاف تام في حضورِكَ... ونحنُ نتجه نحو بعضنا كفرسيْن يدخلان إهاب النصر وتعتكفُ أصابعكَ في يدي كلحنٍ محبوس في صدر كمنجة وتُطوقني بذراعيكَ كحلقة ياسمينٍ تطوّقُ أهاضيب متحركة نحو فصل مشمس.

وأصبحنا أحياءً زائفين حين رحَلْتُ عنكَ ورحَلتَ عَني ورحَلْنَا عن كوكينيا بموت أبيض مُريح في زجاجةٍ غير مكترثة بالزمن، كُتِبَتْ لنا بخدعَةٍ حلوة كشلال أنوار ويشهَدُ قلبي أنّ وجهك النضّاح جعَلَ بشَرَ هذا الكوكب هرمين في مقتبل العمر... وتنازلَ عقلي عن تاجه المريض وحلّق بإيمان نحو عالمكَ ومن ثمة نحو الحياة ومن يومها وكلّ الكلام الذي سأقوله لكَ لا يمكنُ الانتهاء من قوله.

يستعيد هذا القلب ببشارة موعودة عظمته وقوته وهو يلتصق بكَ ويدقُّ في صدركَ كالشجر السامق في صدر ريحٍ عاتية... ودلظتَني كرّكيّة عذبةٍ.

وبدأنا نرتّل حقًا شعائر وَجْدِنا وننتشر في الوديان البعيدة فوق كل هذا السكون كأجراس آبِقَةِ الصدى... أراقصكَ وأتناسى للمرّة الأخيرة في نداء الفادو بكل اعتكارٍ وأقَيّضُ لذاتي عيشًا أكثر فرادةً وبهاءً حين أعانقكَ وأشعرُ بثقلٍ كبير وألتهبُ بسيول الدمع بإيعازٍ سرّي ونرقص لاهثيْن... أبدًا لن تخلوَ الدروبُ من بَوْحِنا... أبدًا لن يُزهِرَ الربيع خارج ذاتيْنا في

الفصول القادمة... أبدًا لن تُبْصِرَ المواكبُ غير علائم سَيْرنا... أبتسمُ وذلك الشعور البَشعُ ما زالَ يُراود قلبي... أنصتُ إلى المطر وإلى «الفادو» وإلى إيقاع أنفاسكَ... وهي تَدقُّ على مصابِ أسماعي إلى أن تهدأ كليًّا لفرطِ ما كان السيْرُ إلى الحلمِ مُتعبًا كيتيمٍ عند أعتابِ بيوتٍ موصدةٍ على أهبَةٍ صامتة...

تلفحُني برودة عنقي وتُدْمِعُني الأشياء التي لم أفكّر فيها بعد ولا أريد الإيمان بها ويتخلّى عني الفرح بوقارٍ شديد، كما تتخلى الشمس عن صقيع طشقند منذ ولادتها، ولا أتلفظ بقعور الكلمات أمام سكينة الموت...! ما عاد بإمكاني أن أرشّ على صدركَ دمعي ولا أن أسوّرَ المدائن بلحن الحداد العميق وأنا أسير إلى ذكراكَ بوجنة كالحة تملؤها الخشية... !

وافترقت أجسادنا قبل أن نلتحمُ في استرفاعٍ بأراغنِ حبنا، قبل أن نفكرَ في إقامة ضريح نتعايشُ فيه – للمرة الأولى على هذه الأرض – ونعصف بمشاتل الزهر وأروقة الحدائق ردحًا من الحنين إلى عهدنا القديم معًا...

بلا نأمةٍ سأظلّ أقيم هنا حفلاتنا الباذخة وفاءً لمحبة كابية المواقد وأشربُ دومًا... نصيبين من «الأوزو»...!

عزيزي القارئ...

لا يمكنكَ الدخول إلى هذا القدر العجيب دون أن تمتلك ''شيزوفرينيا'' حقيقية تقيم بها في كرونولوجية غير عادية تمنحكَ القدرة على ألا تسأل التفاصيل عن وجه أمكنتي ومرايا زمني... حين يغيب بعض الشخوص دون رجعة ويظهر بعضهم باستحقاق أليم وحين تلتصق المدائن ببعضها وتموت المسافات وتتعذّر التفاسير وتشعر بالسوداوية والدوّار وكأنكَ تقف على حافة قبرٍ غريب... حين تشعر بالجنون المجنّح وتمشي عكس سير كلّ قناعاتك السابقة، فاعلم أنكَّ

'' أنتَ '' القارئ الذي كُتِبَتْ له هذه الرواية...

كل هذه الأسطر محكومة ــ فقط ــ بقانون '' البارانويا ''



شمس للنشر والإعلام

٢٧ ش الثلاثين - برج الشانزليزيه - زهراء المعادي - القاهرة

ت فاكس: ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)

www.shams-group.net